

الباب الأول  
التقدير في شرح عمر أبي نؤاس



## مدخل : معنى التقليد ودواعيه في عصر أبي نواس :

يلاحظ كثير من النقاد على عصر أبي نواس، أنه عصر التجديد في الشعر لما اتصف به هذا العصر من مظاهر جديدة كثيرة في الاجتماع والسياسة والثقافة . وهم يعدّون أبا نواس نفسه من أئمة الرواد لقمة التطور للشعر العربي الذي مثله مذهب أبي تمام، بل أنهم يتجاوزون به مسلم بن الوليد، معاصره وبشار بن برد السابق عليه فجعلوا دوره في التجديد له طابعه الخاص المتميز في تاريخ الشعر العربي<sup>(١)</sup>.

إلا أن الواقع إن الجديد الذي جاء به أبو نواس وغيره من السابقين عليه أو المعاصرين له أو المتأخرين عنه كان يسير معه جنباً إلى جنب تيار آخر محافظ يحذو حذو القديم أو يحاول أن يكون استمراراً له وهو التيار الذي أطلق عليه النقاد اصطلاح «التيار التقليدي» في الشعر، على أن لا يكون معنى قولنا هذا أن الشعراء قد انقسموا في هذا العصر إلى مجددين ومقلدين ؛ لا، فإن الواقع أن كثيراً من الشعراء، خاصة الأعلام منهم كانوا مقلدين مجددين في نفس الوقت؛ مقلدين في محافظتهم على المبادئ الشعرية الموروثة، ومجددين إما بعرض موضوعات الشعر القديمة عرضاً جديداً أو بإتيانهم لموضوعات جديدة لم يعرفها الشعر ولا طرقها الشعراء من قبلهم . والسؤال الآن : ما المقصود بالتقليد؟ ومن هو الشاعر المقلد؟ أو، ما هي الصفات اللازم توافرها في الشعر حتى يوصف بأنه شعر تقليدي وبالشاعر حتى يوصف بأنه شاعر مقلد؟

مثل هذه الأسئلة قد لا تكون الإجابة الناجعة عنها بالوصف والتعليل وإنما بالقياس والتحليل . أعني أن الإجابة بمقولات أو «بمواصفات» تقريرية ربما لا تكون مستغرقة في جميع الأوجه التي يتناولها أو يشملها التقليد لأن الحسم في القضايا الأدبية يخرجها عن طبيعتها الإنسانية التي لا تنتهي عادة بغاية أخيرة، إذ يظل مجال القول فيها مفتوحاً للحوار والرد والنقاش ؛ وإنما نحن نرصد الظاهرة الأدبية بآثارها أكثر من حدها أو وصفها بصورة تقريرية . ومن هنا كان معنى التقليد في الشعر يعني

---

(١) حركات التجديد في الشعر العباسي (مقالة ضمن كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين . ط . دار المعارف سنة ١٩٦٤) لعبد القادر القط .

أول ما يعني محاولة ألا تكن ممكنة من حيث أنها تمثيل للقديم بعد تمثله ، فإنها استمرار بهذا القديم على أي وجه كان ؛ من إضفاء صورة الحياة عليه ليعايشنا ونعايشه . وهذا القدر من الإمكان نلتبس مظاهره وآثاره في أشعار المقلدين من الشعراء الذين جعلوا الصورة التاريخية نصب أعينهم تسمو على صورة الواقع بكل قيمها وحيويتها . فالشاعر المقلد إذن في وفاق مع التاريخ مدفوع بقوة استمراره من غير إحساس بأنه يجادله أو يناقضه لأنه يرى فيه إمكان المعاشة والاستمرار يربط بينهما صلة توافقية حميمة ، في الوقت الذي يفصله عن واقعه مسافة نفسية ، إن جاز هذا التعبير ، كالبعد النفسي الذي كان يفصل بين الحياة في العصر العباسي وبين الحياة العربية الإسلامية في الحجاز ونجد<sup>(١)</sup> .

ولكن التقليد اصطلاح أدبي وظاهرة في نفس الوقت أسبابها تكمن في صميم الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ولا يصح الحكم عليها إلا بعد كشف هاتيك الأسباب والدوافع حتى يكون هذا الحكم منسجماً مع المفهوم الأدبي للتقليد باعتباره قضية أدبية شغلت النقاد قديماً وحديثاً . وهكذا كان التقليد في الشعر له وجهان : وجه تاريخي وآخر موضوعي ؛ تاريخي نشأ بعد أن ظهر في التاريخ الأدبي العربي ما يسمى بالأقدمين والمحدثين أو القديم والحديث في الأدب والشعر . أي بعد أن نشأ تيار جديد في الشعر خالف في صورته ومضمونه أو في شكله ومحتواه أو في لفظه ومعناه قليلاً أو كثيراً التيار القديم . ولو أن المسألة بقيت هكذا لما كان هناك داع لأن نشير موضوع التقليد ، فالقديم باق على قدمه والجديد أخذ بسبيله ، وبينهما من أسباب التمايز ما يجعل الحكم على كل منهما أو عليهما معاً مما لا يثير قضية للجدل أو النقاش . ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير ، لأن قديم الأدب غير منفصل عن جديده ، وجديده ابن لقديمه يحمل إلى جانب خصائصه الذاتية صفاته الأخرى الموروثة ، والصورة الأدبية ، مهما وصفت بالجددة والطفرة والحدائث تظل تحمل من الصورة القديمة القدر الذي أقل ما فيه أنه يظل يعطي للصورة الجديدة ، أسباب اتصالها الوراثي بالصورة القديمة ، ومهما قيل عن عدم صلاحية الطراز الشعري القديم ، للعرب والمتعربين من السكان المختلطين<sup>(٢)</sup> . والثورة على هذا الطراز منذ نهاية القرن الأول ، ثم ما أعقب ذلك من ظهور نماذج جديدة ، بل مذاهب جديدة في الشعر<sup>(٣)</sup> . وإدعاء انقطاع الصلة

(١) في الشعر العباسي ، لعز الدين إسماعيل ، ص ٣١٨ ، والمجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، ص ٤٠٢ لشكري فيصل .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان ، ٩/٢ .

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي ، لشوقي ضيف ص ٢٧٢ .

العاطفية بين الشعراء غير العرب والتراث الشعري العربي القديم . . . مهما قيل من ذلك فسوف نجد أن الصورة الشعرية القديمة البدوية التي وصفت بأنها بالية أو لم تعد صالحة لحياة الحواضر والمدن ظلت حتى عند الذين ثاروا عليها وتكروا لها وأزروا بها، حية في النفوس تحمل من أسباب البقاء والاستمرار ما جعلها تقف على قدم المساواة مع الصورة الجديدة، إن لم تكن هي المفضلة في أحيان غير قليلة .

وهكذا كان عصر أبي نواس الذي وصفه النقاد بعصر التجديد والثورة على القديم، هو أيضاً عصر المحافظة والتشبث بأهداب القديم - بل هو عصر القديم والجديد معاً، وعصر التجديد والتقليد في نفس الوقت . وكما ذكرت قبل قليل، ظل أعلام الشعر، ومنهم أبو نواس إن لم يكن أولهم مقلداً ومجدداً في نفس الوقت، فنشأ الصراع بين القديم والجديد، لأن المسألة في حقيقتها لم تكن صراع التاريخ مع الواقع وكل منهما أخذ بمكانه الطبيعي من الزمن، بل لأن المقصود أن يأخذ التاريخ مكان الواقع، عندئذ انقسم الشعراء، أو هكذا فعل النقاد والكتّاب إلى جاهلي ومخضرم وإسلامي وأموي وعباسي مع التفاوت في الاجتهاد من كاتب إلى آخر. وحين اتسعت شقة الخلاف وتبلورت معالم الصراع واتضح جوانبه في حدين متقابلين كانت قسمة الشعراء إلى طائفتين هما القدماء والمحدثون<sup>(١)</sup>. على أنه إذا كانت الحداثة مهما يكن نوعها، المسوغ لها هو الاستجابة لدواعي الحياة، فإن في استمرار أية صورة قديمة، مهما يكن نوعها أيضاً أسباباً أخرى تقف من ورائها لا بد من ذكرها لتتضح لنا صورة التيار التقليدي عند شاعر مثل أبي نواس، قلنا، في صدر هذا الحديث بأنه من رواد التجديد .

من أظهر هذه الأسباب أن التراث الأدبي العربي القديم إذ لم يحاربه الإسلام لأنه لم يتعارض مع مبادئه ولخلوه من أي أثر لديانة العرب الوثنية<sup>(٢)</sup> - فقد اعتبر التراث الثقافي لأمة عربية جديدة خلقها الإسلام، إن كان ذلك بالولاء والإسلام، أو بالتعريب وبالإسلام أو من دونه . فأصبحت اللغة العربية الفصحى المثل الأعلى لمتقفي هذا العصر إذ لم يشبث أمامها لغة من اللغات التي اجتاحت ديارها الإسلام، وهكذا وجدنا معظم شعراء هذا العصر (القرن الثاني الهجري) من غير العرب<sup>(٣)</sup> أو هم من المستعربين . بل إن الفرس الذين قاوموا العرب مقاومة شديدة قد استعربوا كما يقول

(١) أبو تمام الطائي، للبهيتي ص ١٧٢ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب، لمحمد مندور ص ٣٧ .

(٣) من حديث الشعر والنثر، لطف حسين ص ١١ .

نكلسون استعراباً كاملاً في فترة وجيزة رغم الاختلافات الجنسية بينهم وبين العرب<sup>(١)</sup> فأصبح الشعر العربي وهو الصورة الفنية لهذه اللغة التراث القومي للأمة العربية الوليدة بمختلف عناصرها الأممية، والشعر هو ديوان العرب كما يقول ابن عباس<sup>(٢)</sup> وعليه كانت تعتمد العرب في تخليدها حين كانت العجم تقيدها بالبنين<sup>(٣)</sup>. يقول ابن سلام: [وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون...].<sup>(٤)</sup> بل إن نشأة هذا الشعر لم تكن على حد تصور الأقدمين لها إلا حاجة [العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكرياتها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد، وسمحاتها الأجواد، لتَهز نفوسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم]<sup>(٥)</sup>.

وإذن فالشعر العربي القديم ليس مجرد فن أدبي ممتع توارثه الأخلاف عن الأسلاف بل لقد حمل معه فيما حمل الكثير من القيم العربية الخالدة. فلم يكن هناك فن آخر غيره قد بقي للعرب يكون لهم [ديوان علمهم ومتهى حكمهم...]. ولا [علم أصح منه...]. ولذلك كان محفوظهم من الشعر أضعاف محفوظهم من النثر<sup>(٦)</sup>. وهكذا أصبح المأثور عن العرب من أمثال واشتقاقات وأبنية [من لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة]<sup>(٧)</sup>، وكان المسلمون كما ذكرنا يستعينون بالشعر الجاهلي في فهم القرآن الكريم.

يقول ابن عباس: [إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب...]. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أشد فيه شعراً<sup>(٨)</sup>. وهكذا أصبح الشعر العربي القديم عند جمهرة الرواة والعلماء المثل الذي يجب أن يحتديه الشعراء، وما يأتي بعده مهما يكون جيداً فإنما هو دونه [وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتداء هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن أحسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن]<sup>(٩)</sup>.

ولذلك كثر ازراء العلماء والرواة - وجملتهم من المتعصبين للأقدمين - على المحدثين. ولعلمهم كانوا السبب الرئيسي في الإبقاء على تيار المحافظة والتقليد قوياً في الشعر حتى لم يكد

(١) تاريخ الأدب العباسي، لنكلسون، ترجمة خلوصي ص ٥٢.

(٢) العمدة ١/٣٠.

(٣) الحيوان ١/٧٢.

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٢٤.

(٥) المزهر للسيوطي ٢/٤٧٢.

(٦) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٧) الحيوان ١/١٥٤.

(٨) العمدة ١/٣٠.

(٩) المصدر السابق نفسه ١/٩٢.

يفلت من إساره شاعر وأولهم أبو نواس نفسه، ومن قبله بشار، ومن بعده أبو تمام. وكان أبو عمرو بن العلاء لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين<sup>(١)</sup>. وإذا كان صاحب «الوساطة» لم يميز، بزعمه، كنوع من الإنصاف بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد<sup>(٢)</sup> فإنه لا يلبث حتى يؤكد ضرورة ارتباط المحدث بالقديم ارتباطاً وثيقاً ويجعل هذا القديم يعيش في نفسه: [إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفرق. . .]<sup>(٣)</sup>. فالقديم أصيل والمحدث دخيل، ولا بد للدخيل حتى يتسامى إلى الأصيل أن يتطلع إلى شأوه وأن يتسامى إلى محله. ومن أجل هذا كان أهل الجاهلية - المقصود هنا الشعراء - كما يقول الجرجاني نفسه قد [جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة]<sup>(٤)</sup> حتى كان المتقدم على سخطه مستجاداً [ . . . فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله]<sup>(٥)</sup>. ولقد كان هذا الموقف من جانب العلماء والرواة غريباً حقاً، لا يتفق مع الرأي السليم ولا مع النزاهة في الحكم، حتى كان إذا سمع أحد الرواة شيئاً من الشعر الجيد وعلم أن قائله محدث رجع عن رأيه: [حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: أنشدت الأصمعي:

هَلْ إِلَى نَظْرَةِ إِلَيْكَ سَبِيلُ      فَيُئِلُّ الصَّدى وَيُشْفَى الغَلِيلُ  
إِنَّ ما قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي      وكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ القَلِيلُ

فقال: والله هذا الديق الخسرواني، لمن تشدني؟

فقلت: إنهما لليلتهما، فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر]<sup>(٦)</sup>. والغريب أن يضعف الشعراء أمام هؤلاء الرواة فيحاولوا استرضاءهم، وأولئك استرقاقهم، لدرجة جعلت الشاعر يبدو كما لو كان تبعاً للراوي أو العالم.

جاء في الأغاني عن عمر بن شبة [قال: حدثنا خلاد الأرقط قال: لقيني ابن منذر بمكة، فأنشدني قصيدته: - كل حبي لاقبي الحمام فمودي -

ثم قال لي: أفرىء أبا عبيدة السلام وقل له: يقول لك ابن منذر، اتق الله واحكم بين شعري

- 
- (١) العمدة ٩٠/١ .  
(٢) الوساطة بين المتبني وخصومه ص ١٥ .  
(٣) نفسه ص ٤ .  
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٦ .  
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦ .  
(٦) الوساطة بين المتبني وخصومه ص ٥٠ .

وشعر عدي بن زيد ولا تقل ذلك جاهلي، وهذا إسلامي، وذلك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين، ولكن أحكم بين الشعرين ودع العصبية، قال: وكان ابن منذر ينحو نحو عدي بن زيد في شعره... [١].

والظاهر أن ابن منذر كان مرزوءاً بهؤلاء العلماء العتاة إذ يروي صاحب الأغاني أيضاً عن الأصمعي أنه قال: [حضرنا مآدبة ومعنا أبو محرز خلف الأحمر وحضرها ابن منذر فقال لخلف الأحمر: يا أبا محرز، إن يكن النابغة، وأمرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة فقس شعري إلى شعرهم واحكم فيها بالحق، فغضب خلف، ثم أخذ صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه فملأه، فقام ابن منذر مغضباً، وأظنه هجاه بعد ذلك] [٢]. ومثله مروان بن أبي حفصة. يذكر صاحب الأغاني أيضاً أنه جاء إلى حلقة يونس فقال له: . [قد قلت شعراً عرضة عليك فإن كان جيداً أظهرته وإن كان رديئاً سترته فأنشد قوله: - طرقتك زائرة فحجى خيالها - . فقال له يونس: يا هذا اذهب فاطهر هذا الشعر فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله:

«رحلت سمية غدوةً أجمالها»

فقال له مروان: سررتني وسؤتني. فأما الذي سررتني به فارتضاؤك الشعر. وأما الذي ساءني فتقديمك إياي على الأعشى وأنت تعرف محله... [٣].

وهذا النص له دالتان خطيرتان: الأولى سيطرة العلماء على الشعراء، سيطرة جعلت من الشعراء تبعاً لهم، فهذا الخليل بن أحمد يقول لابن منذر وقد حاول التمرد على سلطانه: [إنما أنتم معشر الشعراء تبع لي، وأنا سكان السفينة. إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتكم. فقال ابن منذر: والله لأقولن في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا أحتاج إليك فيها عنده ولا إلى غيرك... [٤].

أما الدلالة الثانية فيه إن الشعراء أنفسهم كانوا يعتقدون بتقدم الأقدمين وأفضليتهم عليهم حتى كان لكل شاعر منهم مثله الأعلى من الشعراء القدامى، فابن منذر ينحو نحو عدي بن زيد<sup>(٥)</sup> وبشار يقاس أو يقارن، إذا أعجب شعره النقاد، بجريير والفرزدق<sup>(٦)</sup>، ومروان بن أبي حفصة بالأعشى وأبو

(١) الأغاني ١٨/١٧٤، ١٧٥ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ١٠/٨٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ١٨/١٨٤.

(٥) الأغاني (ساسى) ١٧/١٢.

(٦) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١/١٥٧-١٥٩.

نواس في قصيدته:

أيها المنتاب عن عفره      لست من ليلي ولا سمره  
بامرئ القيس في قصيدته:

رب رام من بني ثعل مخرج كفيه من ستره  
وكما فرض هؤلاء العلماء والرواة سلطانهم على الشعراء، رفضاً أو قبولاً لإشعارهم، فإنهم فرضوه أيضاً على الذوق العام بوسائل أخرى، منها ما كانوا يتمتعون به من نفوذ واسع وتقدير كبير في قصور الخلفاء والأمراء ورجال السلطة، وقد كان الخلفاء العباسيون حريصين على تنشئة أبنائهم تنشئة أدبية راقية، ومعروف أن الدولة العباسية قامت بعد ثورة اتخذت الدين لها شعاراً، وكان كل هم خلفائها موجهاً حتى يثبوا للشعوب التي كانت تضم دولتهم أنهم جاءوا إلى الحكم بسطان إلهي، لذلك كان تعزيز العربية والانتصار لها باعتبارها لغة القرآن الكريم جزءاً من هذه الغاية، وكان هؤلاء العلماء في الأغلب هم الذين يسامرونهم وهم الذين يقومون على تنشئة أبنائهم وأبناء غيرهم من رجال الطبقة الحاكمة على رواية الأدب القديم إلى جانب الدراسات الدينية، فيشبون على الأعجاب بمأثور الشعر التقليدي، خاصة أن الشاعر لا بد له من اصطناع الأسلوب التقليدي في مديحه باعتباره فن العراقة والأصالة. وكذلك كان أبو نواس يجنح في أماديحه للخلفاء ورجال السلطة إلى هذا الأسلوب.

ومن هؤلاء العلماء الذين كانوا يتمتعون بمكانة عالية في قصور الأمراء، المفضل الضبي الذي اختار مجموعته الشعرية «المفضليات» للمهدي حين كان معلماً له، ومنهم الكسائي معلم الرشيد والأمين والمأمون، وعلي بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويحيى بن المبارك مؤدب أولاد خال المهدي يزيد بن منصور الحميري، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون.

أما الأصمعي صاحب المجموعة الشعرية المشهورة «الأصمعيات» فقد كان سمير الرشيد، وصديق البرامكة<sup>(١)</sup>.

وكان إلى جانب معلمي أولاد السراة من أعلام العلماء والرواة معلمون أقل منهم شأنًا وخطاً من الدنيا والعلم وهم معلمو الناشئة من الطبقات الشعبية، وكانوا جميعهم يؤدبون تلامذتهم برواية

(١) انظر ص ٧٠. من هذه الدراسة.

الأدب القديم إلى جانب ما يحتاج إليه التلميذ من علوم الحساب والخط والعروض والنحو<sup>(١)</sup>.

كذلك كان للعلماء الكبار حلقات في جوامع البصرة والكوفة يسيطرون من خلالها على الساحة الأدبية، بما يبثونه في نفوس الناشئة من التعلق بالأدب القديم، وقد شهد هذا العصر نوعاً من التبادل الثقافي ما بين الحواضر والبادية العربية باعتبارها موطن التقاليد العربية الأصيلة من أدب وشعر وأخلاق وعادات، أو لنقل إن هذا التبادل كان من طرف واحد إذ لم تكف البادية عن إمداد الحاضرة بمأثور ما كانت تخترن في أعماقها من الآثار العربية العريقة سواء كان ذلك عن طريق المساجد أو سوق المرید بالبصرة وكناسة بالكوفة، أو عن طريق رحلات العلماء إلى البادية أو رحيل الشعراء البدو أنفسهم إلى الحاضرة وقيامهم بدور المعلمين، كما كان الشعراء أنفسهم ربما رحلوا إلى البادية لمشاهدة الأعراب والرواية والأخذ عن البدو اللسان الفصيح، كما فعل بشار الذي تربى في حجر بني عقيل ثم أبو نواس من بعد حيث أمضى عاماً كاملاً في صحراء بني أسد.

ونمضي في هذا العصر - عصر أبي نواس - فإذا بنا أمام ظاهرة عجيبة، وهي احتفاظ مجموعة من الشعراء بكل السمات والمميزات اللغوية والأدبية التي كان يختص بها أسلافهم من شعراء الجاهلية والمخضرمين أو حتى شعراء صدر الإسلام وكانوا خير عون لناشئة الحاضرة ومتأديها يمدونهم بمأثورات البادية وتقاليد العريقة، مثل هذا التيار المحافظ، إذا اعتبر استمراراً لما كانت عليه الحالة الاجتماعية والفكرية قبل هذا العصر، فإنه كان يقوم من جهة أخرى بدور موازنة معادلة للتيار التجديدي وهما التياران اللذان كان يتردد بينهما أبو نواس - ما دعت الضرورة الاجتماعية أو الفنية إلى ذلك - وكان له في كل منهما آثار بينات. على أنني لا أعتقد بانغلاق هذا التيار تماماً عن الحياة المعاصرة معيشياً ولا أدبياً، لأن المحافظة أو التجديد نزوع واختيار، أو استعداد وقصد، ثم أن البادية، قيم وثقافة واجتماع، وكذلك الحاضرة، مثلما هما مكاناً وعوامل اجتماعية وبيئية مادية، هذا إلى أن أسباب الاتصال بين الحاضرة والبادية طرقها كانت ميسرة لهذا العصر أكثر من ذي قبل، والدولة تفرض سلطانها على كل جزء من أنحاء رقعتها الواسعة فكيف ببلاد العرب مادة الإسلام، ومهد العربية. ولننظر في بعض أعلام هذه المدرسة المحافظة لنرى منهم المعلم أو الراوي<sup>(٢)</sup> الذي لا بد أن يكون على صلة ما بالحاضرة. ويكفي أن نعلم أن من أنصار هذه المدرسة هؤلاء الأعلام: مروان بن أبي حفصة مداح العباسيين، والعتابي المعتزلي، ومنصور النمري الشيعي. فهل من

(١) رسائل الجاحظ ٣/٣٩ وما بعدها (رسالة المعلمين).

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٦٥ وما بعدها ط. بيروت ١٩٧٨.

المعقول أن يكون هؤلاء الشعراء بما هم عليه من مذاهب فكرية منعزلين تماماً عن تيار الحياة العام؟ ومن الشعراء البدو ذوي السليقة العربية الذين تحولوا إلى معلمين نقع على هذه الأسماء: أبو حية النميري، وعمارة بن عقيل حفيد جرير، وابن العميثل وأبو ضمضم الكلابي، وشبيل بن عزة الضبعي... وغيرهم<sup>(١)</sup>. فهؤلاء الشعراء يمثلون تيار المحافظة أمام المؤثرات الجديدة أصدق تمثيل. وقد شكلوا ظاهرة أدبية متميزة توزعتها البادية والحاضرة على السواء، سواء المقيمون منهم بالبادية بصفة دائمة أم لا، لأن العماد هنا هو المنحى الفكري والاتجاه الفني.

هذه هي مجمل الأسباب التي كانت تدعو إلى التقليد لعصر أبي نواس، وتشد الشعراء إلى الماضي شداً عنيفاً حتى لم يكذب يفلت من أسار التقليد شاعر مهما بلغت درجة ثورته على الصورة القديمة والتكرار لها، أو الأزرار عليها...! على أي أستطيع أن أجمع نوازع المقلدين، على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم، في ثلاث: الأول منزع عاطفي، كان يشد أبناء العروبة خاصة، إما بسبب النشأة والثقافة أو لمواجهة تيار التجديد الذي كان مصحوباً بشعبوية مقبولة في بعض الأحيان، أدت فيما أدت إليه، من زندقة ومجون خلافاً لما هو المعهود من التقاليد العربية الأصيلة.

المنزع الثاني، ثقافي، والثقافة هنا أوسع من أن نحددها بجملته المحفوظ أو المدرس من مقروء ومسموع لآثار الأولين وإنما نتجاوز بها إلى نوازع الإنسان وخبراته وتجاربه في موقفه من القضايا العامة المشتركة، فهي إذن ثقافة عملية ونظرية حيث تتمايز الأمم بعضها عن بعض في اختياراتها وأمزجتها واجتهاداتها ومنجزاتها!

وكذلك تمايزت الأمتان العربية والفارسية في هذا العصر كما لم تتمايز أمتان، حين اتضحت تماماً اختيارات الفرس في اختلافها البين عن اختيارات العرب. حتى في العقيدة المشتركة، والحكومة الواحدة وبشياخ الطوائع الفارسية، المادية منها بصفة خاصة تغيرت صورة الحياة في هذا العصر تغيراً كبيراً كان من ثمارها نزعات بل نزوات طارئة، في السياسية والاجتماع والأدب؛ الاتجاه التجديدي في الشعر، لا شك أنه كان خاضعاً لمؤثرات هذه الطوائع، خضوعاً واضحاً، وهكذا كان للمنزع الثقافي العروبي من آداب وغيرها، الأثر المباشر في احتفاظ الاتجاه التقليدي في الشعر بمكانته وقوته واستمراره.

المنزع الثالث، ديني، ولعله يكون وثيق الصلة بالمنزع الأول ولكنه أخص، وتكفي الإشارة هنا إلى الصلة الوثيقة أيضاً التي ربطت بين التراث العربي القديم وبين الإسلام، بل إن الإسلام

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٥ وما بعدها. ط. القاهرة و ص ١٨٩ ط. تونس والجزائر سنة ١٩٨٥.

قد خدم التراث الجاهلي كما لم يخدم دين آخر أدب أمته، من ذلك على حد ما يذكر زكي مبارك :  
إن المعروف عند المؤرخين [أن الحياة الدينية كانت تسبق الحياة الأدبية في كل بلد يدخله  
الإسلام لأن الإسلام شريعة مدنية واجتماعية قبل أن يكون شريعة أدبية وذوقية . فالفرس والهنود  
والمصريون والأندلسيون سمعوا القرآن قبل أن يسمعوا الشعر الجاهلي، وكذلك كان القرآن أسبق  
إلى تلوين ما صار عند تلك الأمم من شمائل وأذواق]<sup>(١)</sup>.

وعنده [أن الإسلام هو الذي استبد بالأشعار الجاهلية وصيرها من شواهد القرآن]<sup>(٢)</sup>. أي أن  
الإسلام زكى الشعر الجاهلي، لدى الشعوب التي استعربت فأصبح أدباً قومياً لها. وكما كان الشعر  
الجاهلي ديوان العرب فقد استعين به على كشف ما استبهم من القرآن الكريم، فأصبح للشعر  
الجاهلي هذه المكانة العالية لدى الناشئة العربية والمستعربة ومثلاً يحتذى.

ثم جاءت ثقافة أبي نواس التقليدية كما فصلنا الحديث عنها من قبل، باعتبارها سبباً خاصاً  
يضاف إلى جملة الأسباب السابقة في اصطناع شاعرنا للأسلوب التقليدي كلما لزمته الضرورة إليه،  
وكلما احتاج إليه في فنونه الشعرية فقد كانت لديه من الثروة اللغوية، ومن المحفوظ الشعري ومن  
المعرفة المباشرة والخبرة الواسعة بأحوال البادية، ما جعل النقاد كلما وقعوا على خطأ له، أو توهموا  
وقوعه في خطأ يجدون له من المسوغ ما يدرأ عنه تهمة الخطأ أو الجهل باللغة.

أما عن التقليد، وكيف يكون الشاعر مقلداً والشعر تقليدياً فلا بد أن نذكر ابتداءً، أن الشاعر الذي  
اعتبرناه من أئمة الرواد في التجديد فإن الخصومة لم تحدث حول دعوته ولم يقم حوله من الجدل  
ما قام حول أبي تمام ولم ينقسم الناس حوله إلى أنصار وخصوم<sup>(٣)</sup>، فهل كان حظ أبي نواس من  
التجديد ضئيلاً؟ وإن التقليد كان هو الغالب على شعره، ذلك ما سنكشف عنه في الفصول القادمة  
من هذه الدراسة إن شاء الله. ولكن الذي يهمنا أن نبينه الآن، أن التقليد له جانبان: الأول منهج  
في صورة مقدمة تقليدية تسبق الموضوع الرئيسي الذي تقوم عليه القصيدة، والثاني صياغة وهي  
ما تدعى في تاريخ النقد الأدبي العربي بنظرية «عمود الشعر» والمراد به في عبارة موجزة تلك التقاليد  
الفنية التي ورثها المحذثون من الشعر القديم<sup>(٤)</sup> وهي النظرية التي ارتبطت أساساً بالبحثري وأبي

(١) جنابة أحمد أمين على الأدب العربي ص ٥٧ لزكي مبارك. عرض ودراسة د. حسين خريس.

(٢) نفسه ص ٥٦.

(٣) حركات التجديد في الشعر العباسي (مقالة في كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ص ٤٠٩).

(٤) تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي ص ١٣٣ ليوسف خليف.

تمام [وإنهما لمختلفان لأن البحري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف ولأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة . . . شعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة . . .] (١).

أما الجانب الأول أو المنهج الذي كانت تتبعه القصيدة فالمقصود به النظام الذي درج عليه الشعراء منذ أجيال بعيدة في ترتيب موضوعات قصائدهم والمقصود بها هنا الموضوعات التي تسبق الموضوع الرئيسي الذي انشئت من أجله القصيدة، وهذا ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» يقدم لنا خطة الشاعر المادح إذا ما رحل إلى ممدوحه، كيف كان ينهج في سبك قصيدته، ورفض موضوعاتها الموضوع بعد الموضوع، يقول ابن قتيبة:

[وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً للذكر أهلها الظاعنين عنها . . . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصباية والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به اصغاء الأسماع إليه . . . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح . . . فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمناً إلى المزيد] (٢).

ثم يضيف: [وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام] (٣). أما صاحب «العمدة» فيقول: [والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز، وما أنضى من الركائب، وما تجشم من هول الليل وسهره، وطول النهار وهجيره، وقلة الماء وغؤوره ثم يخرج إلى مدح المقصود، ليوجب عليه حق القصد، وذمام القاصد، ويستحق منه المكافأة] (٤).

وهنا يثور سؤال حول هذه المقدمة «المنهجية» التقليدية لفن المديح خاصة، فهل صحيح أن الشاعر المادح هو الذي فكر في أن يبدأ بذكر الديار والحبيبة والسفر ليمهد لمديحه . . . ؟ يقول

(١) الموازنة بين شعري تمام والبحري ٤/١ للأمدي.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢١/١.

(٣) نفسه ٢٢/١.

(٤) العمدة ٢٢٦/١.

مندور: [وإنما هي تقاليد الشعر الجاهلي التي استمرت حية مسيطرة بعد أن دخل التكسب في الشعر فأصبحت المدائح تتكون من جزئين منفصلين تمام الانفصال: القصيدة القديمة . . . ثم المدح . . .] (١) وأكثر من هذا، وهو ما لم يشر إليه «ابن قتيبة» أن الشاعر ربما عمد إلى وصف راحلته وما تعاني أثناء الرحلة الطويلة مشبهاً إياها بالثور أو حمار الوحش فيستطرد عندئذ إلى وصف ما يدور بين هذه الحيوانات وبين كلاب الصيد من عراك، يقول الجاحظ: [ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة، أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش. وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الشيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم] (٢).

فكأنهم كانوا يتخذون من قتل الكلاب في المديح رمزاً لأعداء الممدوح إذ كانوا يشبهونهم بالكلاب (٣).

أما جملة الموضوعات التي تضمنتها مقدمة المديح أو «القصيدة القديمة» كما يسميها مندور، فإنها لم تستقر على هذا الحال إلا بعد أن مر الشعر العربي بمراحل طويلة من التطور والارتقاء، وعلى ذلك فنحن لا نوافق «الجاحظ» على حداثة الشعر وإن عمره لا يتجاوز مئة وخمسين عاماً (٤) وربما كان الصحيح أن العرب لم تحفظ من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام (٥). وقد يكون أقدم ما لدينا من نصوص هذا الشعر يعود إلى حرب البسوس (٤٩٤-٥٣٤م) (٦) ويقول بروكلمان عن المنهج الذي كانت القصيدة القديمة تبنى عليه [هذا المنهج لا بد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل. وقد ذكر امرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال يدعى ابن خدام وإن لم يستطع أدباء العصر العباسي تعيين هذا الشاعر، وتبع المتأخرون هذا المنهج ولم يكادوا يجسرون على تغييره] (٧). بروكلمان يشير إلى قول امرئ القيس:

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ١٩ لمحمد مندور.

(٢) الحيوان ٢/٢٠.

(٣) العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢١٥.

(٤) الحيوان ١/٧٠.

(٥) الأصنام ص ١٢ لابن الكلبي.

(٦) Sir Charles Lyall, Ancient Arabian Poetry, P.xv وتاريخ العرب العام، لسيدبر، ص ٥٥. ترجمة عادل زعيتير.

(٧) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان. ٦٠/١.

عوجًا على الطُّلَلِ المحيِلِ لعلَّنا      نبكي الديارَ كما بَكَى ابنُ حَداَمِ (١)  
ومثله قول زهير الذائع إذا صح أنه له (٢):  
ما أَرانَا نَقولُ إلا مُعَارَا      أو معاداً من لَفْظِنَا مُكْرُورًا  
وعترة أيضاً حيث يقول:

هل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدِّمٍ      أم هل عرفتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُمِ (٣)

ويقول صاحب العمدة (٤): إن امرء القيس كان يتوكأ على أبي دؤاد الأيادي، كما يدل ذلك على قدم التقاليد الشعرية الجاهلية هذه الألقاب التي اكتسبها بعض شعرائهم على مر الأجيال وهي ألقاب فنية كسمات خاصة بهم، تدل على تخصصهم وامتياز كل واحد منهم ببعض النواحي الفنية، فمثلاً كان لقب امرئ القيس بن ربيعة التغلبي هو: المهلهل (٥)، لطيب شعره ورقته وكان لقب طفيل المحبر لحسن شعره (٦). كما لقب علقمة الفحل، بالفحل لجودة أشعاره (٧). ولقب زياد بن معاوية بالنابغة لنبوغه في شعره (٨) . . .

كما نرى محاولات لتقسيم الشعراء إلى طوائف أو مدارس تختص كل واحدة منها بصفات فنية مشتركة (٩).

وهكذا يكون قد اتضح لنا الآن، إن الشعر العربي قد أخذ منذ زمن بعيد لا يعرف مدهاء، بتقاليد طبعته بطابع المحافظة الشديدة، إلى الدرجة التي جعلت أحمد أمين في الربع الثاني من هذا القرن يتهم الأدب الجاهلي أو الشعر الجاهلي بالجناية على الأدب العربي كله (١٠)؛ لأن هذه التقاليد ظلت محمولة، مدفوعة بقوة الاستمرارية من الأسلاف إلى الأخلاف حتى لم يكذب يفلت من أسارها شاعر عربي . . . !

- (١) ديوان امرئ القيس ١١/٤، ط. دار المعارف. (٢) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف، ص ٢٢٦.  
(٣) القصائد العشر، للتبريزي ص ١٧٨. ط. صبيح. (٤) العمدة، ٩٧/١.  
(٥) الأغاني ٧٥/٥ ط. دار الكتب. (٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٢٢.  
(٧) الأغاني ١١٢/٢١. (٨) العمدة ٢٠٥/١.

(٩) العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ١٤٢ وما بعدها، وفي الأدب الجاهلي لظه حسين ص ٢٦٦ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان في مواضع متفرقة، وكذلك محاولة جرونباوم Grunbaum في الأصل الانجليزي من كتاب The Arab Heritage ص ١٢٦ وما بعدها.

(١٠) جناية أحمد أمين على الأدب العربي، لزكي مبارك، ص ٣٩، عرض ودراسة د. حسين خريس.

أما الجانب الثاني، من التقليد، والذي يعد الهيكل الأساسي للقصيدة العربية القديمة فهو العمود «عمود الشعر» وإذا كان المنهج هو نظام ترتيب موضوعات القصيدة القديمة والذي يتجلى في المدائح حيث يستكمل فيها الشعر جميع مقوماته وعناصره، أكثر منه في قصائد الفنون الأخرى فإن العمود يستغرق في بنية الشعر نفسه بغض النظر عن الفن الشعري أو موضوع القصيدة. ومن هنا نعرف لماذا لم يثر أبو نواس حوله من الجدل ما أثار أبو تمام. لسبب بسيط، هو أن ثورة أبي نواس كانت على المنهج، لا على العمود الذي ثار عليه أبو تمام، وإذن فمن الممكن أن يخالف الشاعر المنهج ويظل عمودياً، كما فعل أبو نواس الذي كان محل إكبار اللغويين والنحاة لالتزامه بمبادئهم، وكانوا يلتمسون له المسوغات في درء تهمة الخطأ عنه كلما أسند إليه خطأ.

وعلى حين تحرر أبو نواس من المنهج ظل أسير الصياغة المعهودة أعني العمود، حتى كان أكثر شعراء عصره وقوفاً على الأطلال، في حين كان الجدل من حول أبي تمام لخروجه على الصياغة أي العمود لأن دعوة أبي نواس على حد ما يقول مندور [ . . . لم تكن من الناحية الفنية ضرورية حتمية وبخاصة أنها لم تعد أن تكون محاذاة للشعر القديم . . . ]<sup>(١)</sup>. هذا في الوقت الذي كانت نزعة أبي تمام إلى التجديد في الصياغة واتخاذها البديع مذهباً له، بما يجر إليه مذهب كهذا من التكلف والإحالة والإسراف والإغراب في المعاني المألوفة فأبو تمام إذن [من الفئة الثائرة على عمود الشعر، فئة طلاب المعاني]<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أصبح الوقوف على عمود الشعر ضرورة [ليتميز تليد الصنعة من الطريف. وقديم نظام القريض من الحديث أو يعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع . . . ]<sup>(٣)</sup>.  
ويعدد المرزوقي عناصر العمود فيقول:

[إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف . . . والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم، والثامها على تخير من لزيد الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكله اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار]<sup>(٤)</sup>.

ويعلق يوسف خليف على عمود الشعر بقوله:

[ولكن المسألة - في حقيقة أمرها - تدور كلها حول تلك التقاليد والأصول الفنية الموروثة التي

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٩. (٢) أبو تمام الطائي، للبهيتي، ص ١٩٠.

(٣) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، ١/٨، ٩. (٤) المصدر السابق نفسه.

كان القدماء يقيمون شعرهم على أساسها، والتي ظهر أبو تمام ممثلاً قوياً لحركة التجديد في الشعر العباسي، فمضى يتحلل منها ويرسي مكانها تقاليد ومثلاً فنية جديدة - كان يراها أقرب لتصوير معانيه، وأدق في صياغة أفكاره، وأقدر على صناعة شعره، وإشاعة ما يريد أن يشيع فيه من ألوان الوشي والزخرف، وضروب الحلي والزينة والبديع . . [١].

هذا وقد مضى المرزوقي في شرح عناصر العمود السبعة التي قد لا تكون الحاجة ملححة لذكرها هنا فلتراجع في مكانها من ديوان الحماسة (٢).

وبالنظر إلى ما اتصفت به نظرية عمود الشعر بالصورة التي قدمها بها «المرزوقي»: من رحابة وشمول - مستغرقاً فيه جميع الشعراء، بين لفظيين ومعنويين أو تقليديين ومجددين، أصبح من العسير علينا أن نجمع كل عناصر العمود في شاعر أو نفيها عن آخر، لذلك كانت نظرية العمود، لا يكاد يفلت من فلکها شاعر، يقول المرزوقي أيضاً: [فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلق المعظم، والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن] (٣).

ولعلنا بهذا نكون قد تبينا أن التقليد في شعر أبي نواس وأشعار معاصريه له أسبابه التاريخية والموضوعية والاجتماعية، بل إن التقليد كظاهرة أدبية لا يمكن فصلها عن التجديد كظاهرة أخرى. فالتاريخ والمعاصرة والموضوع بشقيه الجديد والقديم، والفن بشقيه أيضاً التقليدي والتجديدي تكاد تكون كلها ظواهر متلازمة لزوم استمرار الأسلاف في الأخلاف، والآباء والأجداد في الأبناء والأحفاد وهذا ما ستكشف عنه الفصول الآتية من هذه الدراسة إن شاء الله .

(١) تاريخ الشعر في العصر العباسي، ليوسف خليف ص ١٣٤.

(٢) شرح ديوان الحماسة ١ / ١١-٩.

(٣) نفسه ١ / ١١-٩.



## الفصل الأول فن المدح

ما المدح؟

المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء<sup>(١)</sup> وقد عرّف الإفرنج المدح بأنه (خطبة رسمية أو حديث رسمي بكل ما تحمله الكلمة من معنى يلقي على الجمهور بقصد الثناء العظيم على شخص أو شيء)<sup>(٢)</sup> وقد قصر الرومان المدح على الأحياء في حين لم يفرق اليونان بين المدح والثناء، فكلاهما مدح<sup>(٣)</sup>.

هذا ويعتبر المدح في الشعر العربي من أعرق وأقدم وأعرض الفنون الشعرية باباً، من أجل هذا اتخذه «ابن قتيبة» النموذج الأمثل، لنهج القصيدة العربية التقليدية<sup>(٤)</sup>. فهو من دون الفنون الشعرية الأخرى يستغرق في معظم الموضوعات العربية التي شكلت، كما يقول مندور، قصيدة أخرى<sup>(٥)</sup>.

هذا وقد اختلط فن المدح، عند بعض النقاد العرب مع بعض الفنون الشعرية الأخرى، فأبو تمام يجعله مع الأضياف في باب واحد هو «باب الأضياف والمدح» من بين عشرة الأبواب التي قسم إليها حماسته، في حين جعله «أبو هلال العسكري» في «ديوان المعاني» مع التهناني والافتخار في باب مفرد أيضاً، هو «باب المدح والتهناني والافتخار» من بين الاثني عشر باباً التي قسم إليها الشعر العربي<sup>(٦)</sup>، ولكنه يجعل الشعر الجاهلي في أقسام خمسة هي: المدح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي. ثم زاد النابغة قسماً سادساً هو الاعتذار<sup>(٧)</sup>.

(١) لسان العرب (مدح).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٢) دائرة المعارف البريطانية: PANEGRIC.

(٥) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص ١٩.

(٤) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ٢٢/١.

(٧) المصدر السابق نفسه ٩١/١.

(٦) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري ١٤/١.

أما قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر» وابن وهب الكاتب في «البرهان» فإنهما يجعلان المديح أصلاً لجملة من الفنون الشعرية هي: (المراثي والافتخار والشكر واللفظ في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه معناه)<sup>(١)</sup>.

ولكن قدامة عادة فأرجع أبواب الشعر كلها في «نقد الشعر» إلى المديح والهجاء هذا في حين جعل «أبو هلال العسكري» الافتخار مع المديح وقد فصل «ابن رشيق» الرثاء والافتخار عن المديح ولكنه عاد فقال إنهما من المديح مع فرق خفيف<sup>(٢)</sup>.

#### - صورة المديح في العصرين الجاهلي والإسلامي :

المديح في العصر الجاهلي متعدد البيئات والألوان . فهناك مديح قيل في بيئة القبائل سواء أكان الممدوح شيخاً أم رئيساً أم فارساً أم شاعراً، أم كان الممدوح هي القبيلة دون تسمية أحد من أفرادها مهما تكن صفته . وكذلك كان هناك مديح قيل في بيئة الملوك المناذرة والغساسنة حيث كان الشاعر يقوم مقام السفير لدى هذا الملك أو ذاك، كالنابغة الذبياني الذي اتصف مديحه للغساسنة بالسياسة ومن قبله عبيد بن الأبرص لدى امرء كندة أما المرقش الأكبر وهو من أقدم شعراء الجاهلية، فقد مدح أول وأعظم امرء الغساسنة وهو الحارث الأكبر<sup>(٣)</sup> (٥٢٩-٥٦٩م) متشعباً له مشيداً بانتصاره على بعض القبائل التي رفعت راية العصيان، كما كان أبو دؤاد الأيادي على خيل المنذر بن ماء السماء حتى اشتهر بوصفها، أما عمرو بن قميئة أو عمرو الضائع<sup>(٤)</sup> رفيق امرئ القيس في رحلته إلى قيصر فقد سبق النابغة إلى فن الاعتذار، حين اعتذر إلى أحد امرء الحيرة<sup>(٥)</sup>.

ويمثل زهير بن أبي سلمى قمة المديح لا في بيئة القبائل بل في العصر الجاهلي كله، وذلك حين تجاوز بمديحه مجرد الإشادة بالفضائل والمناقب والمروءات إلى الإشادة بالسلام<sup>(٦)</sup> منوهاً بممدوحه هرم بن سنان ورفيقه الحارث بن عوف المرى في إحلالهما السلام بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء مفضلاً أمر الحرب داعياً إلى نبذها، نافذاً من خلال ذلك إلى صور للتعبير

(١) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب ص ١٣٥.

(٢) العمدة ١٤٣/٢.

(٣) المصدر السابق نفسه ١٤٧/٢.

(٤) المؤلف والمختلف، للأمزي، ص ١٦٨.

(٥) خزانة الأدب، للبغدادي، ٢٨٨/١، والعمدة ١٧٧/٢.

(٦) فن المديح في الشعر الجاهلي (رسالة ماجستير) لصاحب هذه الدراسة ص ١٠٠ وما بعدها (مخطوط).

مبتكرة ومعان طريفة لا عهد لشعراء المديح قبله بمثلهما، وربما كان زهير أول شاعر جاهلي بدوي يستنكر الانتقام والأخذ بالثأر مستبدلاً بهما التسامح والسلام حائماً على الاعتصام بهما.

وإذا كانت الرحلة إلى الملوك تمثل قمة التكسب فقد كان هناك شعراء جاهليون وقفوا معظم أماديحهم على ممدوحيههم من شيوخ القبائل ورؤسائها، حتى كاد كل ممدوح يعرف بشاعره أو العكس، فزهير ممدوحه هرم بن سنان ثم الحارث بن عوف المري، وأبو دؤاد الأيادي كان ممدوحه كعب بن مامة أقدم أجواد العرب والأسود بن يعفر ممدوحه هو مسروق بن المنذر، وأوس بن حجر كان يمدح فضالة بن كلدة الأسدي، أما أمية بن أبي الصلت الثقفي فقد كان منقطعاً إلى عبدالله بن جدعان الملقب بحاسي الذهب<sup>(١)</sup>.

أما الأعشى، فقد أرى على جميع شعراء الجاهلية تكسباً بشعره<sup>(٢)</sup> وهو يعد أكثر مدحاً من زهير ومن النابغة، كما إن المديح هو موضوعه الأول، وهو مديح متنوع، كما كثر عدد ممدوحيه مع توزعهم على مختلف اصقاع بلاد العرب فقد مدح اليمنيين وشيوخ القبائل من مضر ورؤساء وامراء غسان والحيرة، كما إن له مدحة في الرسول (ﷺ)، حتى إن الرواة ليذكرون إنه زار الحبشة وبلاد الشام وأورشليم وفارس. كذلك اعتبر مديحه مرحلة مستقلة من المراحل التي مرَّ بها فن المديح في العصر الجاهلي. فهم يقولون إنه أول من سأل بشعره، وإنه جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان وقصد حتى ملك العجم. ولعله يكون بذلك قد مهد السبيل للحطيئة حين كان يهجو إذا سأل أحداً ومنعه.

وبذلك كان الأعشى هو الذي أرسى تقاليد التكسب بالشعر كما حفلت مقدمات أماديحه ببعض الموضوعات الجديدة التي سبق بها عصره كثيراً، من غزل وخمر - جنباً إلى جنب مع الناقة والصحراء، وربما استغنى بهذه الموضوعات الجديدة عن الناقة والصحراء أو غلبها عليها، لتصبح هي الموضوع الأساسي للمقدمة.

أما عن صورة المديح في العصر الإسلامي فلا بد حتى تتضح هذه الصورة على حقيقتها أن نحدد ابتداء العناصر الجديدة التي طرأت على الحياة العربية في ظل الإسلام والتي يمكن إجمالها في جانبين، أولهما المثل الإسلامية بكل ما تعنيه من دنيا ودين، والثاني، قيام الدولة الإسلامية العربية. ونمر سريعاً بعهد الرسول (ﷺ) لتلتقي بشعراء يدافعون عن الدين الحنيف ورسوله الكريم

(١) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام، شرح محمود محمد شاكر ص ٢٦٤.

(٢) فن المديح في الشعر الجاهلي (مخطوط) ص ٢٥٥ وما بعدها.

مع هبات من روائح الإسلام إلى جانب جملة من العناصر والمعاني الجاهلية، ويبرز حسان بن ثابت الأنصاري كأعظم المنافحين عن بيضة الإسلام مادحاً الرسول بما كان يمدح به رئيس القبيلة من سعة في الكرم وبطش بالأعداء ووفاء بالوعود، أما مدحة كعب بن زهير التي استعطف بها الرسول فقد تشبعت بروح الإسلام حين نص فيها على قول «رسول الله» وأنه نور يهتدي به الضالون مشيداً بالتسامح الإسلامي وبالموعظة الإسلامية وبالقرآن الكريم وإن الرسول سيف من سيوف الله على الأعداء:

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ<sup>(١)</sup>  
 مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة      الْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ  
 إن الرسول لسيف يستضاء به      مهند من سيوف الله مسلولٌ

ويصادفنا في عصر الخلفاء الراشدين، الحطيئة، الشاعر الذي ظل على جاهليته في الإسلام، والذي لم يسلم إلا بعد وفاة الرسول<sup>(٢)</sup>، وكان مع المرتدين، والذي حبسه عمر بن الخطاب وكان سيء السيرة في الإسلام كما كان في الجاهلية، وكان لا يهमे من مدح في سبيل الكسب حتى إنه ملاح بني كليب الذين لم يمدحهم أحد قط غيره<sup>(٣)</sup> ووصفتهم ابنة الحطيئة بأنهم بعر الكبش<sup>(٤)</sup> ولذلك كان كثير السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه والالحاق حتى مقت وذل أهله. وكان الناس يتناذرونه إذا حل في قوم جمعوا له حتى يأمنوا هجاءه<sup>(٥)</sup> وأماديحُه في جملتها لا تخرج عن مضمون الأماديع الجاهلية وفي فلكها تدور، وكمعظم الشعراء الجاهليين كان له ممدوح يختصه بمدحيه هو «علقمة بن علاثة». . الذي فضله على عامر بن الطفيل في خير طويل<sup>(٦)</sup> كما مدح زيد الخيل لخوفه منه<sup>(٧)</sup> وحاتما الطائي<sup>(٨)</sup> ومع هذا فيطالعا من بين أماديحه وأهاجيه أيضاً مقطوعة من الشعر الإنساني الرائع يستعطف بها عمر بن الخطاب بأسلوب مؤثر وبمعان أرجح إنه متأثر فيها بروح الإسلام لما يشيع في هذه المقطوعة من معان إسلامية مثل: اغفر، وأنت الأمين يخاطب عمر ثم لرقنتها البالغة ثم لتمثله يوم القيامة ومساءلة صغاره لعمر يوم الحساب عن تجريعهم بحبس عائلهم:

- (١) ديوان كعب بن زهير، ص ١٩ ط. دار الكتب.  
 (٢) ديوان الحطيئة ص ٦٧ بتحقيق نعمان أمين طه.  
 (٣) الأغاني، ١٦٢/٢ ط. الدار.  
 (٤) المصدر السابق نفسه.  
 (٥) ديوان الحطيئة ص ٨٢.  
 (٦) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٢٨١.  
 (٧) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.  
 (٨) ذيل الأمالي ص ١٥٢.

ماذا تقول لأفراخِ بذي مَرخِ حُمِرِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرٌ<sup>(١)</sup>  
غَيَّبَتِ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عَمْرُ  
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَتِ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهَى الْبَشْرِ  
لَمْ يُؤْثِرْكَ بِهَا إِذْ قَدَمُوكَ لَهَا لَكِنْ لَأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِهَا الْأَثْرُ  
ومثله الشماخ في مرتبة له في عمر بن الخطاب بدأها بهذا البيت:

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق<sup>(٢)</sup>  
وفيها ينوه بمآثر عمر لا كشجاع أو فارس أو ملك على غرار ما كان يمدح الجاهليون، بل كإمام  
للمسلمين.

فإذا مضينا إلى الدولة الأموية وجدنا الخلافة قد تحولت إلى ملك وراثي، والخليفة إلى ملك  
يحكم بنظرية جديدة، حاول خلفاء بني أمية أن يثبتوها في نفوس الرعية وهي إن الله اختارهم من  
دون غيرهم؛ الهاشميين الذين كانوا ينظرون إلى الخلافة على أنها ميراثهم اغتصبه الأمويون،  
والقرشيين الذين كانوا ينادون، بلسان ابن الزبير، بعودة الخلافة إلى الحجاز، والخوارج الذين يرون  
رد الخلافة إلى المسلمين جميعاً. وكان لكل فئة أو حزب من هذه الأحزاب، التي تعددت طوائفها  
وفرقها شعراء يعبرون عن آرائها ويدافعون عنها، ويمجدون مبادئها، وكلها كما هو معروف قامت  
على أساس ديني ولكن بوجهات نظر مختلفة انعكست مبادئها وأفكارها على المديح، وهكذا أصبح  
لكل فرقة شاعر أو شعراء يدعون إليها فللكيسانية شاعرها كثير عزة<sup>(٣)</sup> وللزيدية (إحدى الفرق الشيعية  
أيضاً) شاعرها الكميت بن زيد بديوانه «الهاشميات» التي أشاع فيها الجدل والنظر العقلي على  
طريقة المعتزلة حتى إن بشار بن برد لم يعتبر الكميت شاعراً<sup>(٤)</sup> في حين اعتبره الجاحظ خطيباً<sup>(٥)</sup>.

أما الحزب الأموي، فلأنه حزب الدولة والسلطان التف من حوله معظم الشعراء وفي طليعتهم  
الثلاثة الكبار: جرير والفرزدق والأخطل، مؤكدين على حق الأمويين في الخلافة<sup>(٦)</sup> محاولين أن  
يضعوا لحزبهم نظرية سياسية في مواجهة نظريات الأحزاب الأخرى، وتعتمد على أولية الأمويين

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٠٨.

(٢) الأغاني، ١٥٩/٩ ط. الدار. (٣) ديوان كثير عزة ١٨٦/٢، والأغاني ١٤/٩.

(٤) الأغاني ٢٢٥/٣. (٥) البيان والتبيين ١٢٥/١ بتحقيق السندوبي.

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية، لجورجي زيدان، ٢٧٦/١.

بالخلافة وإنهم ولاة شؤون المسلمين باختيار الله سبحانه وتعالى ، وهكذا أسبغ الشعراء الأمويون على خلفائهم صفة القداسة إما إرضاء لهم أو تشبهاً بشعراء الشيعة وتقليداً لهم في اعتقادهم بقداسة الأئمة كما تدل على ذلك مدائح جرير في عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك<sup>(١)</sup>.

وأما عمر بن عبد العزيز فلتقواه وورعه وجدنا جريراً يصفه بالمبارك المهدي وأن الخلافة صارت إليه بقدر مقدور كاتيان موسى ربه بقدر مقدور<sup>(٢)</sup>. وهكذا أشبه جرير في أمويته السياسية كثيراً والكميت في عقيدتهما المذهبية. كذلك الفرزدق مع إنه أقل من جرير تشيعاً للأمويين إلا إنه يمضي في نفس السبيل في أماديجه لهم فهو يقول في إحدى مدائحه لعبد الملك بن مروان إن الله ولي خليفته الأرض فهو يسوسها بإرادته كما يجعل الخلافة في بني أمية إرثاً عن عثمان<sup>(٣)</sup> إذا كان الهاشميون يذهبون إلى أن الخلافة مشروعة لهم بعد علي فإن الفرزدق يجعل الأمويين أحق سيقاً بالخلافة عن عثمان حتى الأخطل الشاعر المسيحي المتمسك بدينه<sup>(٤)</sup> سرت في أماديجه الأموية روح دينية إسلامية فأخذ يردد مع الشعراء المسلمين أفضلية بني أمية وإن الله اختارهم للخلافة من دون كل الناس<sup>(٥)</sup> حتى لقد رأيناه يمزج في أماديجه بين الديانتين المسيحية ديانته والإسلام ديانة ممدوحيه<sup>(٦)</sup>.

بهذا العرض لصورة المديح في العصرين الجاهلي والإسلامي استطعنا أن نقف على الحقائق التالية:

قدم المديح في الشعر العربي من كونه يعود إلى أقدم الشعراء المعروفين لنا، مع الوفرة في نماذجه وتعدد بيئاته وألوانه وهو منذ العصر الجاهلي أقام مبدأ التكسب بالشعر إلى جانب المديح السياسي مع تطوير واضح لمعانيه ومبانيه ومناهجه .

أما في العصر الإسلامي فقد كان للمثل التي جاء بها الإسلام ولقيام الدولة الإسلامية أثرهما العظيم في تطوير قصيدة المدح الإسلامية حين استوحت تلك المثل السامية واضطلعت بمهمة التعبير عن أغراض الدولة الجديدة من نظريات سياسية ومذاهب دينية فما وافى العصر العباسي

(١) شرح ديوان جرير ص ٢٧٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٨٤ - ٤٣٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٧٤ .

(٣) ديوان الفرزدق ٢٥/١ .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية لنلينو ص ١٣١ ، ودائرة المعارف الإسلامية (الأخطل).

(٥) ديوان الأخطل ١٧١/١ . (٦) تاريخ الآداب العربية، لنلينو، ص ١٣٢ .

حتى كانت شجرة المديح الإسلامية قد تشعبت فروعها وتشابكت أغصانها مادة قصيدة المدح العباسية بكل أسباب القوة والنماء .

- مديح أبي نواس :

هناك جملة من الاعتبارات لا بد من الوقوف عندها قبل التحدث عن مديح أبي نواس، منها إن أبا نواس نفسه لم يكن يحل مديحه المكانة اللائقة من شعره، إذ يقول رداً على من سأله عن شعره: (فأما الذي أفنى فيه وحدي وكله جد فإذا وصفت الخمر)<sup>(١)</sup>، كما يذكر ابن منظور في مكان آخر (من إن أبا نواس لم يكن يحسن المدح ولا الهجاء) وإن (أجود شعره في الخمر الطرد)<sup>(٢)</sup> وهكذا وجدنا فن التقليد الأول في الشعر العربي كله، أبو نواس مقصر فيه أو هكذا يزعم «ابن منظور» في حين كان فن الطرد وهو فن التقليد الثاني عند أبي نواس، مقدماً على المديح، ومع هذا، وجدنا باب المديح في ديوانه يقع في المرتبة الثانية من ناحية الكم بعد الخمريات، ومعنى هذا إن مديحه كثير بخلاف ما يرى بعض الدارسين<sup>(٣)</sup>. كما كثر عدد ممدوحيه، وتعددت طبقاتهم الاجتماعية، حتى كان بين ممدوحيه: الخليفة والشريف والوزير والقائد ورجل الدولة والسوقة . . . حتى الخدم، كانوا من ممدوحى أبي نواس .

من أجل هذا انقسم مديحه بالإضافة إلى ممدوحيه إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث طبقات: مديح الخلفاء ومديح الأعيان من أشرف ووزراء ورجال دولة، ثم المديح العام أو مديح العامة .

وجانب الطبقة في المديح لاحظته نقادنا القدامى، حين رأينا، قدامة بن جعفر في «نقد الشعر» يميز بين مديح الرفيع ومديح الوضع (وقد ينبغي أن يعلم أن مدائح الرجال وهي التي صمدنا للكلام في هذا الباب تنقسم أقساماً بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضر . . .)<sup>(٤)</sup> كما يحدد قدامة ما يجب أن تمدح به كل طبقة من الفضائل الأربعة وهي: العقل والشجاعة والعدل والعفة بأقسامها ومركباتها .

على أنه ليس شرطاً أن نخضع أماديح أبي نواس لتقعيد قدامة، ومنطقه الفلسفي العجيب ولكن لما كان المدح معلقاً بسبب: الباعث عليه وشخص الممدوح، أصبح من الضروري ملاحظة الفئة أو الطبقة الاجتماعية التي إليها ينتمي الممدوح، وهكذا انقسمت أماديح أبي نواس إلى ثلاثة أقسام كما ذكرنا .

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور: ٥٩/١ . (٢) المصدر السابق نفسه: ٧٤/١ .

(٣) في الشعر العباسي لعز الدين إسماعيل ص ٣٤٤ . (٤) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ص ١٧٨ .

## - مديح الخلفاء: الرشيد - الأمين

قلنا إن أبا نواس لم يعرف أحداً من الخلفاء قبل الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) ولا بعد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ) آخر. وإذن فالرشيد أولى بالتقدمة على الأمين لأنه أسبق.

هذا وتبلغ أماديح أبي نواس في الرشيد، خمساً، ثلاثٌ منها قصائد<sup>(١)</sup>. ومقطوعتان<sup>(٢)</sup> وهكذا يصبح مجموع ما لدينا من مديح أبي نواس في الرشيد نحواً من ثمانين بيتاً من الشعر قالها في مدى ثمانية عشر عاماً عند من يرى أن بداية اتصاله بالرشيد أو قدومه إلى بغداد كانت في سنة ١٧٥هـ<sup>(٣)</sup>، أو على مدى أربعة عشر عاماً عند من يرى أن بداية الاتصال كانت في سنة ١٧٩هـ<sup>(٤)</sup>، وواضح إن هذا المديح ضئيل جداً إذا قيس بمكانة الرشيد العالية وشهرته العالمية وبطول مدة خلافته التي تجاوزت العشرين عاماً (١٧٠-١٩٣هـ)، ثم بما يروى عن علاقة أبي نواس بالرشيد، تلك العلاقة التي جعلت صورة أبي نواس في خيال العامة مرتبطة بصورة الرشيد في «ألف ليلة وليلة» إذ يقوم فيها أبو نواس مقام مضحك البلاط<sup>(٥)</sup>، وأحياناً مقام النديم أو الصديق الحميم<sup>(٦)</sup> الذي يختصه الرشيد بأدق أسراره<sup>(٧)</sup>. ومهما يكن من شيء فإن هذه الأماديح لم تكشف عن علاقة متميزة، ربطت بين الشاعر الكبير والخليفة العظيم، بل على العكس، فالمعروف إن الرشيد حبس أبا نواس أكثر من مرة لأسباب مختلفة، منها تلبسه بالسكر في المسجد<sup>(٨)</sup> أو هجاؤه بعض بني العباس<sup>(٩)</sup> أو هجاؤه نزاراً<sup>(١٠)</sup>.

أظهر ما يلقانا من مدائح أبي نواس للرشيد ليس قيمتها الفنية فقد غلب عليها التقليد، وقلة

(١) ديوان أبي نواس، ص ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٢ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٠١، ٤٠٣.

(٣) أبو نواس لعبدالحليم عباس ص ٤٩ عدد «٢١» سلسلة «اقرأ».

(٤) عبدالحميد العبادي: مجلة الهلال - عدد ١٠ السنة ٤٤. أغسطس ١٩٣٦، وانظر للمقارنة: الوزراء والكتّاب،

للجهشياري، ص ٢٥٤، والديوان ١/١١٠، ١٦٠ برواية الأصهباني وتحقيق إيغالد فاغتر.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية «أبو نواس» الترجمة العربية.

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور: ٨/٢.

(٧) المصدر السابق نفسه ١/٢١٥.

(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور: ١/٢٢٤، وديوانه ١/٢٥٥ بتحقيق إيغالد فاغتر.

(٩) المصدر السابق نفسه: ٢/٥٧-٦٠.

(١٠) المصدر السابق نفسه ١/١٥، ٣٦.

الابتكار والإبداع الفني إذا ما قيست بأماديحه في الأعيان من أشراف ووزراء<sup>(١)</sup>، ولكن ما تضمنته من الإشارة إلى ثلاثة أحداث تاريخية كان لها خطرهما في تاريخ الرشيد وتاريخ الخلافة العباسية، ويحدد عبدالحميد العبادي لكل حدث مدحة بعينها، أولها المدحة التي يستهلها الشاعر بقوله:

خَلَقَ الزَّمَانُ وَشَرَّتِي لَمْ تَخْلُقِ وَرَمَيْتُ فِي غَرَضِ الزَّمَانِ بِأَفْوَقِ<sup>(٢)</sup>

والتي يرجح العبادي إنه قالها في انتصار الرشيد على نقفور ملك الروم سنة ١٨٧هـ، وهو انتصار أشار إليه الطبري<sup>(٣)</sup> وأشاد به جملة من الشعراء من مثل: الحجاج بن يوسف التميمي وأبي العتاهية والتميمي، هذا في حين يتأخر الديوان<sup>(٤)</sup> برواية الأصبهاني بزمان هذه المدحة إلى ما بعد عودة أبي نواس من مصر حوالي سنة ١٩٠هـ<sup>(٥)</sup> فإذا أضفنا إن مناظرة المسلمين للروم استغرقت وقتاً طويلاً كما تعددت انتصاراتهم على الروم، مما يضعف عندي الجزم بأن أبا نواس قال هذه المدحة سنة ١٨٧هـ، وإنما هي، إشادة بالرشيد في جانب من سجايه المعروف بها وهي القتال والدفاع عن بيضة الإسلام.

وفي هذه المدحة ينوه أبو نواس بتقوى الرشيد وانتصاره على المشركين من الروم والقائه الروع في قلوبهم حتى لتخافه النطف في الأرحام:

إني حلفتُ عليكَ جَهْدَ أَلِيَّةٍ      قسماً بكلِّ مقصّرٍ ومحلّقٍ  
لقد اتّقيتَ اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ      وجهدتَ نفسكَ فوقَ جَهْدِ الْمُتَّقِي  
وأخفتَ أهلَ الشُّركِ حتى إنّه      لتخافكَ النُّطفُ التي لم تُخلّقِ

أما الحدث الثاني فهو تولية الرشيد ولاية عهد لابنائه الثلاث: الأمين والمأمون والمؤمن على التوالي الأمين<sup>(٦)</sup> سنة ١٧٥هـ وذلك بالحاح من خال الأمين عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور على الفضل بن يحيى الذي كان الأمين في حجره، وذلك بعد أن مد بنو العباس أعناقهم إلى

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي لمصطفى الشكعة ص ١٨٧.

(٢) الديوان ص ٣٩٨ ط. الغزالي وج ١ ص ١١٠ برواية الأصبهاني وتحقيق ايفالد فاغنز ص ٤٧١ برواية الصولي وتحقيق بهجت الحديثي ط. بغداد سنة ١٩٨٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٨ / ٣٠٧-٣١٠.

(٤) الديوان: ١ / ١١٠ ط. ايفالد فاغنز.

(٥) النجوم الزاهرة: ٢ / ١٢١.

(٦) الطبري ٨ / ٢٤٠، الجهشباري ص ١٩٣، عصر المأمون ١ / ١٣١.

الخلافة لأنه لم يكن للرشيدي ولي عهد. فعهد الفضل إلى وضع الرشيدي تحت الأمر الواقع بأن أظهر البيعة للأمين في بلاد المشرق حيث كان الفضل والياً<sup>(١)</sup>، فلما تنهى الخبر إلى الرشيدي، استجاب للأمر، وعندئذ تبارى الشعراء منوهين بهذه المناسبة منهم سلم الخاسر وأبان اللاحقي<sup>(٢)</sup> ومنصور النمري<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ١٨٢ هـ<sup>(٤)</sup> بايع الرشيدي لابنه عبدالله المأمون وضمه إلى جعفر بن يحيى، وكان ذلك بتأثير جعفر نفسه، وفي سنة ١٨٦ هـ بايع لابنه الثالث القاسم بتأثير عبدالملك بن صالح الذي كان القاسم في حجره وسماه المؤتمن.

وفي هذا الحدث الكبير، الذي اختلف الرأي العام حوله<sup>(٥)</sup> قال أبو نواس همزيتة<sup>(٦)</sup>:

لقد طالَ في رَسْمِ الدِيَارِ بَكَائِي      وقد طالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي  
وفيها يشير إلى تولية أبناء الرشيدي ولاية العهد:

تَبَارَكَ مِنْ سَاسِ الْأُمُورِ بَعْلَمِهِ      وَفَضَّلَ هَرُونَاً عَلَى الْخُلَفَاءِ  
نَزَّالُ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى التَّقَى      وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ  
إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَانَهُ      يُؤَمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ  
جعل أبو نواس من هذا الحدث دليلاً على تقى الرشيدي وخوفه من الله.

أما الحدث الثالث فهو اتخاذ الرشيدي قلنسوة مكتوباً عليها: «غازٍ حاج»<sup>(٧)</sup> وكان ذلك في عام ١٩٠ هـ وفي خبر آخر إنه قد اتخذ دراعة قد كتب من خلفها «حاج» ومن قدامها «غاز»<sup>(٨)</sup> والمعروف

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ١٩١.

(٢) عصر المأمون ١٣٢/١، النجوم الزاهرة ١٠٦/٢.

(٣) شعر منصور النمري ص ٧١ جمع وتحقيق الطيب العشاش، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨١.

(٤) الطبري، ٢٦٩/٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ٢٧٦/٨.

(٦) المصدر السابق نفسه ٣١٦/٨.

(٧) الديوان ص ٤٠٢ ط. الغزالي، و ١١٩/١ ط. ايفالد فاغتر و ص ٣٥٨ ط. بغداد.

(٨) الطبري ٣٢١/٨.

(٩) الوزراء والكتاب للجيشياري، ص ٢٠٦.

أن الرشيد كان متعوداً على الحياة الحربية منذ ميعة شبابه حتى طبع عصره بطابع المجد والصيت (١). ولذلك غلبت على أماديح أبي نواس فيه الرهبة والمهابة بخلاف أماديحه في ابنه الأمين كما سنرى، التي كان ينطلق فيها على هواه. أما المدحة التي قالها بهذه المناسبة فقد استهلها بهذا المطلع التقليدي أيضاً واقفاً على الأطلال (٢):

حَيِّ الدِيَارِ، إِذِ الزَّمَانُ زَمَانٌ      وَإِذِ الشَّبَاكُ لَنَا حَرَى (٣) وَمَعَانُ

وفيها يشير إلى تلك الحادثة منوهاً بما هو معروف عن الرشيد من أنه كان يحج سنة ويغزو سنة .

فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوَفَادَةٌ      تَنَبَّتْ بَيْنَ نَوَاهِمَا الْإِقْرَانُ (٤)

حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكُرَى      بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَحْدَانُ (٥)

على أن أهم ما يتصف به مديح أبي نواس للرشيد، يمكن إجماله في ثلاثة جوانب هي :

الإغراق في التقليد، والمبالغة في إبراز سطوة الرشيد، والتقوى وهكذا وجدنا أبا نواس يقف على الاطلال في مدحتين من المدح الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً والتي هي أهم مدائحه في الرشيد - ففي مدحته النونية:

حِي الدِيَارِ إِذِ الزَّمَانُ زَمَانٌ      وَإِذِ الشَّبَاكُ لَنَا حَرَى وَمَعَانُ

وجدناه يتبع الوقوف على الأطلال بالنسيب . . . ثم يمضي إلى ذكر ناقته مشيداً بقوتها وسرعتها مسهباً في وصف مشافرها وأنفها ولونها . . .

يَا حَبِذَا سَفْوَانٌ مِنْ مَتْرَعٍ      وَلرَبَّمَا جَمَعَ الْهُوَى سَفْوَانُ (٦)

وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدِّيَارِ مَسْلَمًا      فَلِغَيْرِ دَارِ أَمِيمَةَ الْهَجْرَانُ

إِنَّا نَسْبِنَا وَالْمَنَاسِبُ ظَنَّةٌ      حَتَّى رُمِيَتْ بِنَا، وَأَنْتِ حَصَانُ (٧)

(١) عصر المأمون ١/١٣٧ .

(٢) الديوان ص ٤٠٤ ط . الغزالي ١/١٠٦ ط . ايفالد فاغنز و ص ٥٢٠ ط . بغداد .

(٣) حرى: كعلى هو حراء، جبل بمكة، تحث فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ومعان موضع بطريق حاج الشام .

والشباك جمع شبكة . والمعنى أن في حرى ومعان شباك الهوى نصب ليصطدنا .

(٤) والنوى: الوجه الذي يذهب فيه والأقران: الجبال والمعنى: إنه يغزو الروم ويحج في كل عام وشتان بين الاثنين .

(٥) اليعملات: النياق السريعة . الوحدان نوع من سيرها .

(٦) سفوان: موضع بالبصرة . المترع: اسم للمكان الذي ينزله القوم أيام الربيع .

(٧) نسبنا: شبينا وتغزلنا، الشدنية: الناقة منسوبة إلى موضع باليمن أو محل .

لَمَا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا      وَخَدَّتْ بِي الشَّدَائِيَّةُ الْمِذْعَانُ  
سَبَطُ مَشَافِرُهَا، دَقِيقُ خَطْمِهَا      وَكَانَ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ (١)  
وَاحْتَازَهَا لَوْ نُ جَرَى فِي جِلْدِهَا      يَقُقُ كَقَرطَاسِ الْوَلِيدِ، هِجَانُ (٢)

أما المدحة الطللية الثانية، فإنه يشبه فيها نفسه في تحيره وتردده وطول وقوفه بالرسوم، بطارد طريدة لهفة ولوعة وهو معنى مستوحى من الطرد الذي أجاد في وصفه وحلق. حتى إذا يئس من مطلوبه وأيقن بعدم الظفر ببعيته ألوى بزمام ناقته متجهاً إلى حانة الفته كلابها فهي لا تزعجه بالنباح والوعاء وأبو نواس هنا كأنه يرمز إلى مذهبه التجديدي ولكن بأسلوب عملي، وهو المذهب الذي فسره بعض نقادنا المحدثين بأنه محاذاة للمذهب القديم (٣):

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ بُكَائِي      وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي  
كَأَنِّي مُرْبِعٌ فِي الدِّيَارِ طَرِيدَةٌ      أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً، وَوَرَائِي  
فَلَمَّا بَدَأَ لِي السَّيْئُ عَدَّيْتُ نَاقَتِي      عَنِ الدَّارِ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيَّ عَزَائِي  
إِلَى بَيْتِ حَانٍ لَا تَهْرُ كَلَابُهُ      عَلَيَّ، وَلَا يُنْكَرُنَ طَوْلُ ثَوَائِي

ولم تكن المدحة الثالثة التي لم يقف فيها على الأطلال أقل إبعالاً في التقليد من سابقتها. فأبو نواس بعد أبيات قليلة من التأمل في الحياة يجلو منظرًا عجباً لصقر وكأنه يقدم أحد فصوله الطردية المشهورة كما سنبين في الفصل الثاني من هذا الباب (٤):

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِدُسْتَبَانَ مَعْلَمٍ      صَحَبِ الْجَلَّاجِلِ فِي الْوُظَيْفِ مُسَبِّقٍ (٥)

حُرٌّ، صَنَعْنَاهُ لُتْحَسَنَ كُفَّهُ      عَمَلُ الرِّفِيقَةِ وَاسْتَلَابَ الْأُخْرَقِ  
يَجْلُو الْقَدَى بِعَقِيقَتَيْنِ اكْتَنَّا      بَدَارَ سَلِيمِ الْجَفْنِ، غَيْرِ مُخْرَقِ (٦)

(١) السبط: المسترسل ضد الجعد. المشافر للابل كالشفاة للإتسان. الخطم: الأنف. وشبه خلقها بالبنيان لصخامتها وارتفاعها.

(٢) احتازها: ضمها وجمعها والمقصود شملها. يقق: شديد البياض، هجان: الهجان الخالص من كل شيء.

(٣) النقد المنهجي عند العرب، لمحمد مندور، ص ٥٩.

(٤) الديوان ص ٣٩٨ ط. الغزالي.

(٥) الدسستان: الصقر. الجلاجل: الأجراس. الوظيف: مستدق الذراع والساق.

(٦) العقيقتان: عينا الصقر. الذرا: بريد رأس الصقر. مخرق: ممزق أو لعلها من خرق الطائر خاف فعجز عن =

ألقى زابره، وأخلق بزة  
فكأنه متدرع دياجة  
وإذا شهدت به الوقية اقلعت  
يعتام جلته، ويقصر شأوها  
حتى رفغنا قدرنا بنضائها  
كانت حياكة صانع متنوق<sup>(١)</sup>  
عن قالص الثبان، غير مسوق<sup>(٢)</sup>  
عنه الغيبة، وهو حر المصدق<sup>(٣)</sup>  
بمؤنف، سلب الشباة، مذلق<sup>(٤)</sup>  
فالحجم بين مؤزر وموشق<sup>(٥)</sup>

فهل كان اهتمام أبي نواس بوصف الصقر استجابة لما يعرف من رأي ممدوحه في الصيد<sup>(٦)</sup> على أن أبا نواس بمزاوجته بين الصقر والناقة يكون قد أضاف اقنوماً رابعاً إلى أقانيم البداوة الثلاث: الناقة والصحراء والخيمة، هو وصف الصقر لما يتصف به شعر الطرد من بداوة<sup>(٧)</sup>.

كذلك رأينا الممدوحين في هذا العصر يوجهون الشعراء إلى ما يحبون أن يمدحوا به كأبي جعفر المنصور الذي كان يكره أن يشبه بالأسد أو الحية أو الجبل أو البحر<sup>(٨)</sup> أما الرشيد فقد طلب إلى حاجبه أن يبلغ الشعراء المجتمعين ببابه: (من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليفعل...)<sup>(٩)</sup>.

وهكذا وجدنا الرشيد يتخذ قلنسوة أو دراعة وقد كتب عليها عبارة: غاز حاج رمزاً للدين والدنيا ولا شك عندي أن اتخاذ الرشيد لقلنسوة أو دراعة مكتوب عليها «غاز حاج» هما الرمز للدين والدنيا، اللذين طلب إلى الشعراء أن يمدحوه بهما، فالغزو للدنيا، والحاج للدين، وهكذا كانت للرشيد مبالغاته فيها جميعاً في الدين والدنيا من سطوة وجبروت في الدنيا، ومن تقوى وورع في الدين

= الطيران وفي رواية الأصبهاني بتحقيق فاغر ١١٢/١ غير محرق، ويقال حرق عينه أي فسدت وبطلت.

(١) زايرة: ثيابه - متنوق: مجيد، محسن.

(٢) قالص: منكمش. الثبان: سراويل صغير يستر العورة الغليظة: غير مسوق: غير لابس شيئاً على الساق.

(٣) الوقية: المعركة. الغيبة: ما تثيره المعركة من غبار. حر المصدق: صادق الحملة.

(٤) المؤنف: المحدد. سلب الشباة: خفيف الحد، مذلق: محدد.

(٥) النضاء: المراد أنه رفع القدر بعد أن جف ماؤها. مؤزر: اللحم الذي زاد نضجه فاحترق. الموشق: اللحم المقدد.

(٦) المصايد والمطارذ، لكشاجم، ص ٥.

(٧) تاريخ الأدب العربية لثنيون ص ١٩٢، المرشد إلى فهم أشعار العرب، لعبدالله الطيب، ١/٢٣٠.

(٨) الأغاني، ٥/١٧٢، العقد الفريد، ١/٢٤٩. (٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٥٠.

والنظر في تحليل الاستاذ المرحوم أحمد أمين لشخصية الرشيد يرينا صدق ما ذهبنا إليه<sup>(١)</sup> وهو ينقل عن الأغاني، هذه العبارة العميقة الدلالة على شخصية الرشيد (كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة وأشدّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة)<sup>(٢)</sup>. وهكذا جاء أبو نواس مستوحياً هذين الجانبين من حياة الرشيد مبرزاً سطوته وجبروته، كما لم يبرزها شاعر آخر، متجاوزاً في ذلك حد المعقول، إلى الدرجة التي بدا فيها غريباً على تفكير العصر، وعلى الفكر الإسلامي أيضاً، حتى أثار استنكار معاصريه من الشعراء فأبو نواس يضفي صفة الربوبية في أكثر من موضع من مديحه على الرشيد وذلك حين يقول:

وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّسْفُ الَّتِي لَمْ تُخَلِّقِ

فهذان الشاعران مسلم بن الوليد قريع أبي نواس<sup>(٣)</sup> والعتابي الشاعر المثقف، يستهلان ما ذهب إليه أبو نواس إذ يقول مسلم لمخاطبه وقد سأله عن شعراء بغداد فقدم أبا نواس عليهم<sup>(٤)</sup> جميعاً (ويلك إذ كيف يكون كذلك وهو يحيل ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق... كقوله: وأخفت أهل الشرك وهذا من الإغراق المستحيل في العقول، ومما ليس على مذهب القوم)..

أما العتابي فقد لقي أبا نواس فقال له: (يا أبا علي: أما أخفت الله تعالى في شعرك حيث تقول وأخفت أهل الشرك)<sup>(٥)</sup>.. ومثل هذا قوله أيضاً:

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفَوَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانٌ<sup>(٦)</sup>

وعده صاحب «الوساطة» مع البيت: وأخفت أهل الشرك... من الإحالة<sup>(٧)</sup> كما يصف صاحب «الموشح» بيت أبي نواس: وأخفت أهل الشرك... بأنه (بادى العوار جداً)<sup>(٨)</sup> وقد كرر أبو نواس هذا المعنى في قوله:

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ١١٥/١-١٢٠.

(٢) الأغاني، ١٧٨/٣.

(٣) العمدة ١٩١/١.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٧٢/١، الموشح للمزباني ص ٤١٩.

(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٧٣/١، والموشح ص ٤٣٩.

(٦) ديوان أبي نواس ص ٤٠٦ ط. الغزالي.

(٧) الوساطة للجرجاني ص ٦٢. (٨) الموشح للمزباني ص ٤١٦.

حتى الذي في الرحم لم يك صورةً لفؤاده من خوفه خَفَقَانُ  
ويعلق صاحب الموشح على : (حتى الذي في الرحم . . .).

بقوله : (وما لم يك صورة فكيف يكون له فؤاد، فقد أحوال وأسرف وتجاوز . . .) (١).

ومثل هذه المبالغة في المدح التي تتعارض مع الفكر الإسلامي لم يستنكرها الرشيد، وإنما أرضت غرور الغازي، ولكنها لم تعبر بصدق عن مشاعر «الحاج» يقول بروكلمان : (ولم يكن من السهل على الخلفاء والوزراء أن يتأبوا دائماً على غلو الشعراء وعشهم بالمدح) (٢). وكأنما استقر في نفوس الشعراء أن لا يبالوا ما يقولون ولا كيف يقولون في مدح الملوك وإن اطنبوا (وذلك محمود، وسواه مذموم) (٣). وأما إن كان سوقة (فايك والتجاوز به). وأيضاً (فقالوا إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعلة، كما تمدح العامة وإنما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله).

وهذا الطابع الدموي لمدح أبي نواس في الرشيد، ليس مقصوراً على الإشادة بنضال الرشيد لأعداء الإسلام، بل تلمسه في مجال العفو، وموضع الاسترحام، ومعروف أن الرشيد حبس أبا نواس أكثر من مرة، فلنستمع إليه كيف يصل إلى أدنى درجات الاسترقاق والعبودية، وهو يصور عفو الرشيد عنه، وكأنه جزور أو ذبيحة، حلال لحمها ولكن الرشيد بما له من صفات الربوبية حرم لحمه على الذبح فانتشله من بين برائن الموت المحقق :

هذا أمير المؤمنين انتاشني      والنفس بين مُحنَجِر ومُخَنَّق  
حرمت من لحمي عليك مُحَلَّلاً      وجمعت من شتى إلى مُتَفَرِّق

أما عن تدين الرشيد على الوجه الصحيح، فله مظهران في مدح أبي نواس، أولهما التزام الجذ وعدم التصريح بذكر الخمر أو الإلحاح على الغزل كما كان شأنه مع غير الرشيد من ممدوحيه. الثاني، تأكيد على الجانب الديني من شخصية الرشيد بحيث كانت أفعاله جميعاً من مناضلة أعداء الإسلام أو تولية ابنائه الثلاث ولاية العهد أو عفو عن الشاعر، أو سياسته في الرعية كلها يسف عليها الشاعر صفة دينية، وينقل حمزة الأصبهاني، عن المبرد قوله (٤) : (ولقد كان الرشيد ممن يتحامى الإقرار بحضرتة أو بحيث يذكر قبله أو شرب كأس وما أشبه ذلك لجلالته ونبل ملكه، وبعده من احتمال السُخف). وحين مدح أبو نواس الرشيد، بقصيدته :

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١١/٢.

(١) الموشح ص ٤١٦.

(٤) الديوان ١/١٢٠ ط. فاغتر.

(٣) العمدة ١/١٢٩.

لقد طال في رسم الديار بُكائي وقد طال تَرَدَّدي بها وعنائِي

(فلما بلغ وصفه للخمر تغير وجه الرشيد . فلما بلغ :

«فإن تكن الصهباء أودت بتالدي» سكن قليلاً - فلما قال : «وكأس كمصباح السماء شربتها»

أراد أن يأمر به فلما أنشد : «تبارك من ساس الأمور بقدره» أخذته هزة فأمر له بعشرين ألف درهم<sup>(١)</sup>.

ودائماً تلقانا عبارات تنم عن أن الرشيد قد قسم أيامه بين الغزو والحج بين الدين والدنيا، وهو الشعار الذي اتخذه الرشيد على قلنسوته أو دراعته كما قدمنا، كقوله :

يَلْقَى جَمِيعَ الْأَمْرِ وَهُوَ مَقْسَمٌ بَيْنَ الْمُنَاسِكِ وَالْعَدْوِ الْمُوفِقِ<sup>(٢)</sup>

وكقوله في موضع آخر من نفس القصيدة مقسماً بأن الرشيد يكلف نفسه في سبيل الله فوق طاقته :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَيْكَ جَهْدَ أَلِيَّةٍ قَسَمًا بِكُلِّ مَقْصَرٍ وَمَحَلِّقٍ  
لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جَهْدِ الْمُتَّقِي  
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخَلِّقْ

وحين وزع ولاية العهد على ابنائه الثلاث، أشاد أبو نواس بهذا الصنيع الأحمق، على أنه وحي رباني وكان الرشيد يصدر فيه عن علم «لذني» وإن هذه السياسة الخرقاء فيها الخير للرعية ما كانت طيعة لإمامها الذي تجب القدوة بتقاه، حتى كأنه من خشية الله سبحانه وتعالى ينتظر لقاء صباح مساء :

تَبَارَكَ مِنْ سَاسِ الْأُمُورِ بَعْلَمِهِ وَفَضَّلَ هَارُونَ أَعْلَى الْخُلَفَاءِ  
نَعِيشٌ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى التُّقَى وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ  
إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَانَهُ يُؤَمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ

ولعل أصدق ما مدح به أبو نواس الرشيد حين يصفه بأنه عز الإسلام، وحصنه المنيع يدفع عنه اذاة المشركين فيغزوهم في عقر دارهم حتى يتركهم عاجزين عن الكلام ومكلفاً نفسه انجهد والتعب غير راكن إلى نعيم الدنيا ولا إلى لذائذها، وهي الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل

(١) الديوان ١/١٢١ . ط . فاغتر .

(٢) الموفق : اسم فاعل من أوفق السهم وضع الفوق في الوتر ليرمي .

مسلم صحيح الإسلام، خليفة كان أم فرداً من ابناء الشعب:

برأكَ اللهُ لِلإِسْلَامِ عِزًّا وَحَصْنًا دُونَ بَيْضَتِهِ حَصِينًا<sup>(١)</sup>  
لقد أُرْهِبْتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى تَزُورَهُمْ بِنَفْسِكَ كُلَّ عَامٍ  
وَمَا يَتَذَمَّرُونَ زِيَارَةَ وَاصِلٍ لِلْقَاطِعِينَا  
وَلَوْ شِئْتَ اِكْتَفَيْتَ إِلَى نَعِيمٍ وَقَاسَى الأَمْرِ دُونَكَ أَحْرُونََا

وهكذا مضت الحياة بالجندي المناضل بين غزو وحج وكلاهما من مقاصد المسلم الصحيح:

فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوَفَادَةٌ تَنْبَتُ بَيْنَ نَوَاهِمَا الأَقْرَانُ  
حِجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الكَرَى بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الوَحْدَانُ

وهكذا تضمن مديح أبي نواس في الرشيد، منجزاته العظيمة وما كان يتحلى به من صفات رفيعة، ومواهب فذة، شغلت الشاعر عن الاهتمام بالصفات الحسية التي كانت أظهر صفات مدائحه في الأمين. أما الرشيد فلم يتجاوز في أوصافه له ونعوته العرف السائد أو المتوارث وفي حدود اللياقة والمهابة، كما - يبدو لنا من الأمثلة التالية كقوله:

- تتحاسد الافاقُ وَجْهَكَ بَيْنَهَا فَكَأَنَّهُنَّ - بحيث كنت - ضرائرُ  
- إن العيونَ حُجِبْنَ عَنْكَ بِهَيْبَةٍ فَإِذَا بَدَأَتْ بِهِنَّ نُكُوسَ نَاطِرُ<sup>(٢)</sup>  
- فشفَّعُ حَسَنَ وَجْهَكَ فِي أُسِيرٍ يَدِينُ بِحُبِّكَ الرَّحْمَنَ دِينًا<sup>(٣)</sup>  
- أَثْمٌ، طُوأَلُ السَّاعِدِينَ، كَأَنَّمَا يُنَاطُ نِجَادًا سَيْفِهِ بِلَوَاءِ<sup>(٤)</sup>  
- يَحْمِيكَ مِمَّا تَسْتَسِرُّ بِفَعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهِ لَا يَرِيْبُكَ مَشْرِقِ<sup>(٥)</sup>

وكما غلب التقليد على مديح أبي نواس في الرشيد بحيث لم يجاوز «عمود الشعر» في مفهومه المتعارف عليه، كذلك فقد اختفت شخصية الشاعر، أو كادت أن تختفي وراء حجب صفيقة من التقليد في الفن والرسميات في العلاقة فكانت شخصية الرشيد بكل مواهبها ومنجزاتها وإشعاعها وقوة نفاذها هي المهيمن على الوجود الشعري لهذه المدائح.

— — —

(١) ديوان أبي نواس، ص ٤٠٣، ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٠٣.

(٣) نفسه ص ٤٠١ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٠١.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٠٢.

فإذا تركنا مديح الرشيد إلى مديح الأمين، وجدنا الاختلاف بينهما كبيراً. ويمكننا أن نرصد ثلاثة أسباب ميزت مديح الأمين هي: العلاقة الدقيقة الطويلة التي كانت تربط بين الأمين وأبي نواس، وشخصية الأمين نفسه بطيشه ومجونه وضعفه ثم نسبة الهاشمي من طرف أمه وأبيه.

أما عن علاقة الشاعر بالأمين، فإنها قديمة ترجع بها بعض المصادر إلى طفولة الأمين لتجعل من أبي نواس يشارك الكسائي في تعليم الأمين<sup>(١)</sup> ولتمتد بهذه العلاقة فإذا بأبي نواس منقطع إليه أيام إمارته<sup>(٢)</sup> ونديم له طول مدة خلافته<sup>(٣)</sup> ثم لتتردد بعد ذلك هذه العلاقة بين حدين متباعدين من الصداقة التي تصل إلى درجة العشق<sup>(٤)</sup> ومن الجفاء حتى يزوج بالشاعر في السجن متهماً بالزندقة<sup>(٥)</sup> وتنقل الأخبار أن أبا نواس غلب على الشعراء في زمان الأمين<sup>(٦)</sup>، حتى سمي شاعر أمير المؤمنين<sup>(٧)</sup> لذلك كثرت أماديحه في الأمين<sup>(٨)</sup> حتى بلغت نحواً من ثلاثين مدحة بين قصيدة ومقطوعة - رغم قصر مدة خلافة الأمين (١٩٣-١٩٨هـ) مما يدل على أن بعض هذه المدح يعود إلى ما قبل تولي الأمين الخلافة كقصيدته<sup>(٩)</sup>:

تَبِيهُ الشَّمْسُ والقَمَرُ المُنِيرُ . إذا قَلْنَا كأنَّهُما الأَمِيرُ

ولعل عبارة الطبري (وكان انقطاعه إليه أيام إمارته)<sup>(١٠)</sup> تعنى قبل الخلافة إذ لو أراد خلاف ذلك لنص على لفظ الخلافة، وبالنظر إلى تقارب ميول كل من الأمين وأبي نواس، غلب على بعض هذه الأماديح الطابع الشخصي إذ تخلص فيها أبو نواس من كثير من تقاليد فن المديح العريق، ومن رسميات البلاط، حيث كان يجد الشاعر نفسه في تلك الأماديح التي قامت على الإعجاب كما لم يكن يجدها في أماديح الرشيد التي كانت تقوم على المهابة حتى إن جملة منها أدرجت

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢٣٠/١.

(٢) الطبري ٥١٤/٨.

(٣) العمدة ٤٤/١.

(٤) أخبار أبي نواس، لأبي هفان ص ١٠١، وأخبار أبي نواس، لابن منظور، ١٢٠/١ وتهذيب ابن عساكر ٢٦٨/٤.

(٥) الطبري ٥١٨/٨.

(٦) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٦٩/١.

(٧) الفرج والتنهاني بأخبار الحسن بن هانيء (مخطوط) الورقة: ٢٨.

(٨) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٩٧.

(٩) ديوان المعاني ٢٣٠/١، وديوان أبي نواس ص ٤٢٢، ط. الغزالي.

(١٠) الطبري ٥١٤/٨.

في باب الخمریات، أو كانت ذوات مقدمات خمرية أو إن الخمر أدرجت في صلب المدحة إلى جانب ما تضمنته من معان ومضامين أخرى، من ذلك المدحة<sup>(١)</sup>:

تَبَّه نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسَ يَسْقِيكَ كَأْسًا فِي الْعَلَسِ

التي غلب عليها الخمر، والمدحة<sup>(٢)</sup> :

أَلَا دَارِهَا بِالْمَاءِ حَتَّى تُلَيْنَهَا فَلَنْ تُكْرَمَ الصَّهْبَاءُ حَتَّى تُهَيِّنَهَا

التي وردت أبيات منها في باب الخمریات أيضاً<sup>(٣)</sup>. يذكر ابن منظور<sup>(٤)</sup> أن أبا نواس أشد الأمين هذه المدحة عند توليه الخلافة. ومن الخمریات التي ورد اسم الأمين فيها، خمريته المعروفة :

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللُّومِ لَوْمًا لَا أذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَمِيمًا<sup>(٥)</sup>

التي قالها بعد أن حرم عليه الأمين شرب الخمر. والخمرية<sup>(٦)</sup> :

أَعَاذُلْ أَعْتَبْتَ الْإِمَامَ، وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتَ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ، وَأَعْرَبَا

والخمرية<sup>(٧)</sup> :

وَنَدْمَانٍ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ بَأْنُ يُمَسِّيَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْتِشَاءُ

كما إن الإشارة إلى الأمين، بما يشعر إنه المقصود بلفظ «ندمان». منصوص عليها في آخر أبيات القصيدة :

وَذَاكَ مُحَمَّدٌ تَفْدِيهِ نَفْسِي وَحُقَّ لَهُ، وَقَلَّ لَهُ الْفِدَاءُ

ومع إن الأمين أمر شاعره بوصف الأطلال، باعتبارها جزءاً من قصيدة المدح القديمة إلا إنه لم يكن يطيل عندها الوقوف وعندئذ قال أبو نواس<sup>(٨)</sup> :

اعرَّ شعرك الأطلالَ والدَّمَنَ القفراً فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرًا

ومع إن هذه القصيدة معتبرة من الخمریات إلا أنها ليست أقل من أماديجه الخمرية مدحاً،

(١) ديوان أبي نواس ص ٢١٧، ط. الغزالي.

(٢) نفسه ص ٤١٤، ط. الغزالي.

(٣) نفسه ص ٢٠.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١١٤/١.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٢٩، ط. الغزالي.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٢٢.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ٢٣.

(٨) نفسه ص ٢١ طبعة الغزالي.

ومثلها أيضاً الخمرية<sup>(١)</sup>:

أَطْعِ الخَلِيفَةَ، وَاعْصِ ذَا عَرَفِ وَتَنْحَ عَنْ طَرْبِ، وَعَنْ قَصْفِ  
وعلى أية حال فإن أشهر مدائح أبي نواس في الأمين قد صدرت بالوقوف على الإطلال ولكن  
من غير إطالة<sup>(٢)</sup>:

يَا دَارُ مَا فَعَلْتُ بِكَ الأَيَّامُ ضَامَتِكَ والأَيَّامُ لَيْسَ تُصَامُ  
عَرَمَ الزَّمَانِ عَلَى الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ، وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ  
أَيَّامٌ لَا أَعْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مَرَاقِبَةً، عَلِيَّ ظَلَامُ

إلا إنه سرعان ما يتحدث عن تجربته الشخصية في الحياة وكيف إن ما اجترح من ملاذ وما  
أصاب من لهور كانت نهايته الندم والإثم:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ العُورَةِ بِدَلْوِهِمْ وَأَسْمَتُ سَرَحَ اللّهُو حَيْثُ أَسَامُوا  
وَبَلَّغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشِبَابِهِ فَإِذَا عَصَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَثَامُ  
ثم الرحلة في الصحراء التي هي رديف الأطلال في المدحة، ومكملة حتى إذا حطت راحلتها  
إلى جوار خير الناس كانت ظهورها حراماً على الركوب:

وَتَجَشَّسْتُ بِي هَوْلَ كُلِّ تَنُوفَةٍ هُوَجَاءَ فِيهَا جُرْأَةٌ إِقْدَامُ  
تَذَرُ المَطِيَّ وَرَاءَهَا فَكَأَنَّهَا صَفٌّ تَقَدَّمَهُنَّ وَهِيَ أَمَامُ  
وَإِذَا المَطِيَّ بَنَّا بَلَغُنَّ مُحَمَّدًا فَظَهْرُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ  
قَرِينَتَنَا مِنْ خَيْرٍ مِنْ وَطِيءِ الحُصَى فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

وبعد ذلك يأتي فصل من المديح يقوم على الإعجاب بمدوحه والمحبة له أكثر من قيامه على  
الخوف والمهابة كما كان شأنه مع الرشيد، فالأمين يطل على شاعره، كإطلالة القمر على الناس،  
فبعد أن رفع عنه الحجاب كما يرفع عن حسناء بدا القمر وضيئاً جلياً، لا تستطيع أن تدرك أبعاد  
مجاله الأوهام، بل إن أبا نواس يجعل من جمال وجهه ومدوحه مسعفاً له على الشراب. وهو الملك  
المبجل الذي لا يعترى خليله الفقير، وحيد في علاه قد أعز الله به الإسلام، متفوق في شرفه، قد  
اختاره الله مذ كان غلاماً هداية للناس، وهو حازم الرأي شجاع مقدم كما يدعو له بطول البقاء:

رُفِعَ الحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعَ دُونَهُ الأَوْهَامُ

(١) ديوان أبي نواس ص ٦٦، ط. الغزالي.  
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٠٧.

مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ  
مَلِكٌ تَوَحَّدَ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَى  
مَلِكٌ أَغْرَ إِذَا شَرِبَتْ بَوَجْهِهِ  
فَالْبَهُوُ مَشْتَمَلٌ بِيَدْرِ خِلَافَةِ  
سَبْطُ الْبَنَانِ إِذَا احْتَبَى بِنَجَادِهِ  
إِنَّ الَّذِي يَرْضَى إِلَاهَهُ بِهَيْدِهِ  
مَلِكٌ إِذَا اعْتَسَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ  
دَاوَى بِهِ اللَّهُ الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى  
أَصْبَحَتْ يَا ابْنَ زَبِيدَةَ ابْنَةَ جَعْفِرِ  
فَسَلِمْتَ لِلْأَمْرِ الَّذِي تُرْجَى لَهُ

وهكذا نظل نلمس هذا الإكبار المشوب بالإعجاب في كل مدحة قالها أبو نواس في الأمين.

فالدنيا تهش للأمين لأنه قائم بأمور الدين والدنيا على وجهها الصحيح :

تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ قَامَ بِالْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ (٣)  
يَا أَمِينَ اللَّهِ عَشْ أَبْدًا إِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنْ  
كَيْفَ تَسْخُو النَّفْسُ عَنْكَ، وَقَدْ قَمْتَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ  
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدُوا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنْ

وإذا كان مديح أبي نواس في الرشيد مشوباً بالحذر والرهبة فإن مديحه في الأمين ينم عن الاطمئنان والإقبال إلى درجة كاد يصبح معها نوعاً من الإخوانيات أو ضرباً من المسامرات والمناديات، والآقاي ممدوح عظيم يقبل على نفسه أن يخاطبه شاعره بما يتخاطب به المحبون من وصل وهجران وصلح وعتاب ووفاء وغدر<sup>(٤)</sup>:

(١) سبط البنان: سخي. النجاد: حمائل السيف. واحتبى بها أي جمع بين ظهره وساقه. فرع الجماجم: علاها لطلوه أو لشرفه.

(٢) اعتسر الأمور: أي استولى عليها ووجهها الوجهة التي يريد. يفل السيف: يكسره.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤١٣ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٥٢٥ ط. بغداد و ص ٤٢٠ ط. الغزالي.

يا من يبادلني عشقاً بسلوانٍ  
 كما أكون له عبداً يُقَارِضُنِي  
 إذا التقينا بصلح بعد مَعْتَبَةٍ  
 أم من يُصَيِّرُ لي شُغْلاً بِإِنْسَانٍ  
 وصلاً بوصلٍ وهجراناً بهجرانٍ  
 لم نفتسرقُ بعد موعودٍ لِلْقِيَانِ

أما ما تتضمن قصائد المديح بعد ذلك من التنويه بمكانة الممدوح من الإجلال والقدسية إلى درجة مساواته بالرسول (ﷺ) ومن الإشادة بجوده وبأسلافه من بني العباس، خاصة ولادتيه من قبل أمه وأبيه فعناصر تكاد تكون قسيماً مشتركاً في كثير من أماديحه. وحتى يضيء أبو نواس على مديحه الطابع التقليدي المألوف نراه يصطنع الرحلة ووصف الرحلة والمفاوز أحياناً:

أقول والعيسُ تعروري الفلاة بنا  
 لذات لوثٍ عُفْرَنَاءَ، عُدَّافِرَةٍ  
 يا ناقُ لا تسأمني أو تبلغي ملكاً  
 متى تحطى إليه الرحلُ سألماً  
 مقابلاً بين أملاك، يفضله  
 مدالاهُ عليه ظلٌ مملكةٍ  
 تنازع الأحمدانِ الشبه فاشتبهها  
 شبهانٍ لا فرق في المعقولِ بينهما  
 إن يُمسك القطرُ لا تُمسك مواهبهُ  
 هو الذي قدر الله القضاء له  
 هو الذي امتحن الله القلوب به  
 صُغِرَ الأزيمة من مثنى ووحدانٍ  
 كأنَّ تَضْبِيرَهَا تَضْمِيرُ بِنْيَانٍ  
 تقبيلُ راحتِهِ والركنِ سيانٍ  
 تستجمعي الخلقَ في تمثالِ إنسانٍ  
 ولادتانٍ من المنصُورِ ثنتانٍ  
 يلقي القصي بها والأقرب الذاني  
 خلقتُ وخلقتُ كما قدَّ الشراكانِ  
 معنأهما واحدٌ والعُدَّةُ اثنانِ  
 وليُّ عهدٍ يدهُ تستهلانِ  
 ألا يكونُ له في فضله تانٍ  
 عمَّا تُجمجمُ من كُفْرٍ وإيمانِ

كذلك تجسد في هذه المدحة اهتمام أبي نواس بالأمر السياسي والخوض في مشكلات الخلافة، رغم قلة اهتمامه بها فهو يرد رداً عنيفاً على من تحدثه نفسه بالتطلع إلى الخلافة، مؤكداً حق بني العباس فيها لأنهم كما يقول صنو النبي وأعداؤهم من العلويين وخلافهم غير صنوان:

وإن قوماً رجوا إبطالَ حقكم  
 لن يدفعوا حقكم إلا بدفعهم  
 فقلدوها بني العباس إنهم  
 أمسوا من الله في سُخْطٍ وعصيانٍ  
 ما أنزل الله من آيٍ وُرْهَانٍ  
 صنو النبي وأنتم غيرُ صنوانٍ

وإن لله سيفاً فوق هامهم  
يستيقظ الموت منه عند هزته  
محمد خير من يمشي على قدم  
بكف أبلج لا ضرع ولا وإن  
فالموت من نائم فيه ويقظان  
ممن برا الله من إنس ومن جان

ومن أماديع أبي نواس في الأمين ما تجاوز فيها حد المديح المشوب بالإعجاب إلى الإعجاب المحض مثل مديح عمر بن أبي ربيعة للنساء<sup>(١)</sup> متخذاً أسلوب العشاق والمحبين كقوله<sup>(٢)</sup>:

ازور محمداً فإذا التقينا  
فارجع لم أئمه ولم يئمني  
وتعابت الضمائر في الصدور  
وقد قبل الضمير من الضمير  
وبسبب هذين البيتين دعا أبو العتاهية أبا نواس الشاب العاهر وأشعر الناس<sup>(٣)</sup>.

وهكذا انتهى مديح أبي نواس للأمين من المديح المحض إلى المديح المشوب بالإعجاب وأخيراً إلى الإعجاب المحض المشوب بالخوف والحذر، ولكنه ليس كحذره ولا كخوفه من الرشيد من ذلك قوله<sup>(٤)</sup>:

أصبحت صباً ولا أقول: بمن  
إن أنا فكرت في هواي له  
إني على ما ذكرت من فرق  
من خوف من لا يخاف من أحد  
حسنت رأسي قد طار عن جسدي  
لا أمل أن أناله بيدي

ويذكر «ابن منظور» إن أبا نواس قال هذه الأبيات في الأمين وهو يسبح في ثياب ملاح فرأى منه أبو نواس ما لم ير مثله فقال فيه ما قال<sup>(٥)</sup>. بل إن «ابن منظور» يذكر أن أبا نواس قال في الأمين أبياتاً أباح بها دمه وهي:

يا قاتل الرجل البريء  
كيف السبيل للثم سا  
الله يعلم أنني  
وأصد عنك حذار أن  
وغاصباً عز المملوك  
لقتيك أو تقبيل فيك  
أهوى هواك وأشتهيك  
تقع الظنون علي فيك

(١) الأغاني ١/٧٤ ط. الدار.

(٢) تهذيب ابن عساکر ٤/٢٥٨.

(٣) نفسه ونفس الصفحة.

(٥) نفسه ١/٢٢٠.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١/٢١٩.

إني أهابك أن أبوح بما أجنّ وأتقيك

وهكذا غصت مدائح أبي نواس في الأمين بالصفات الحسية مما سماه بعض الكتاب بالمديح الوصفي أو الغزلي<sup>(١)</sup> مشبهاً إياه بكل ما يمكن إضافته إلى المرأة وقد تبعت عدد المرات التي أشاد فيها أبو نواس بجمال الأمين من وصفه بالقمر أو البدر أو الشمس أو الضياء أو الإشراق أو الصبح أو النور أو الدر أو الأزهر. . . فتجاوزت الخمسين . وذلك حيث يقول :

- رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فِلاَحٍ لِنَاطِرِ  
مَلِكٍ أَغْرَى إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ  
فَالْبَهُوُ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خِلاَفَةِ  
- رَهَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ  
- إِنْ الْخِلاَفَةَ لَمْ تَزَلْ  
بَدْرُ الْأَنَامِ مُحَمَّدٌ  
جَاءَتْ بِهِ ابْنَةُ جَعْفَرٍ  
- بِأَزْهَرَ مِنْ بَنِي الْمُتَصَوِّرِ تَنَمِي  
- أَصْحَى الْإِمَامِ مُحَمَّدُ  
تَبْكِي الْبِدُورَ لِضَحْكِهِ  
- وَجِيهِ مُحَمَّدٍ شَمْسُ  
- لَكَ الطَّيْنَةُ الْبِيضَاءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ  
- يَا غَيْثُ أَبْرُقْ وَأَرْعُدْ  
- قَدْ زَيَّنَ اللَّهُ دُنْيَانَا وَحَسَّنَهَا  
وَازْدَادَتْ الْأَرْضُ لِمَا سَاسَهَا سَعَةً  
- تَتِيهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمَنِيرُ  
لَأَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ حِينَ تُمْسِي  
وَنورُ مُحَمَّدٍ أَبَدًا تَمَامُ  
- قَدْ يَنْقُصُ الْقَمَرَ الْمَنِيرُ إِذَا اسْتَوَى

قَمَرٌ تَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَوْهَامُ  
لَمْ يَعُدْكَ التَّبَجِيلُ وَالْإِعْظَامُ  
لَبَسَ الشَّبَابَ بِنُورِهِ الْإِسْلَامُ  
أَسْرَةً مَلِكٍ وَاسْتَقَرَّتْ مَنَابِرُ  
تَزْهُوٍ وَتَفَخَّرُ بِالْأَمِينِ  
أَخَذَ الْمَكَارِمَ بِالْيَمِينِ  
قَمَرًا جَلًّا ظَلَمَ الدُّجُونَ  
إِلَيْهِ وَلادَتَانِ لَهُ اثْنَتَانِ  
لِلدَّيْنِ نُورًا يُقْتَسَبُ  
وَالسَّيْفُ يَضْحَكُ إِنْ عَبَسَ  
وَمُلْكُ مُحَمَّدٍ عَرْمَسُ  
وَأَنْتَ وَقَدْ طَابُوا أَعْفُ وَأَطِيبُ  
مُحَمَّدُ مِنْكَ أَجْوَدُ  
بَابِنِ الشَّفِيعِ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي الْمَطَرِ  
حَتَّى تَضَاعَفَ نُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ  
إِذَا قُلْنَا كَأَنَّكَ مَا الْأَمِيرُ  
وَإِنَّ الْبَدْرَ يَنْقُصُهُ الْمَسِيرُ  
عَلَى وَضَحِ الطَّرِيقَةِ لَا يَحْوَرُ  
وَبِهَاءِ وَجْهِ مُحَمَّدٍ لَا يَنْقُصُ

(١) أبو نواس لعمر فروخ ص ١٠٣ ط . بيروت سنة ١٩٦٠ .

- تَتِيَهُ بِكَ الدُّنْيَا، وَتَزْهُوَ الْمَنَابِرُ وَتُشْرَقُ نُورًا حِينَ تَبْدُو الْمَقَاصِرُ

أما عن نسب الأمين الهاشمي العباسي من جهة أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وأبيه الرشيد بن المهدي بن المنصور فقد جعله هذا النسب ممدحاً<sup>(١)</sup> من الشعراء أكثر من أخيه المأمون كما رشحه لولاية العهد قبل المأمون الأكبر سناً والأليق للخلافة<sup>(٢)</sup> وهكذا مضى أبو نواس في تمجيد الأمين بهذا النسب العريق من جهة ولادته أمه وأبيه كما تدل على ذلك الشواهد التالية :

- أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ زَبِيدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ  
- لئن كَانَ من هَارُونَ فَيْكَ مَشَابَهُ  
لأنك إنْ جَدَاكَ عُدَا فَإِنَّمَا  
نَرَاكَ ابْنَهُ من جَانِبِيهِ كِلَيْهِمَا  
- جَاءَتْ بِهِ ابْنَةُ جَعْفَرٍ  
مَهْدِيَةٌ، خَيْرُ النِّسَاءِ كَذَا  
قَالَتْهُ يَبْقِيهِ وَبَقِيهَا  
- وَلِيَّ عَهْدٍ مَالَهُ قَرِينُ  
اسْتَغْفَرَ اللَّهَ! بَلَى... هَارُونُ  
إِلَّا النَّبِيُّ الطَّاهِرُ الْمَيْمُونُ  
- يَرَاكَ بَنُو الْمَنْصُورِ أَوْلَاهُمْ بِهَا  
- بِأَزْهَرَ من بَنِي الْمَنْصُورِ، تُنَمَى  
- لَكَ الطِّينَةُ الْبِيضَاءُ من آلِ هَاشِمٍ  
- مُقَابِلُ بَيْنِ أَمْلَاكِ يُفْضَلُهُ  
- يَا شَبِيهَ الْمَهْدِيِّ جُودًا وَبِدْلًا  
- وَإِذَا بَنُو الْعَبَّاسِ عُدَّ حِصَاهُمْ  
- أَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكِ الْأَرْضَ مِثْلُهُ  
وَجَدَاكَ مَهْدِي الْهَدَى وَشَقِيقَهُ

أَمْلاً لِعَقْدِ حِبَالِهِ اسْتِحْكَامُ  
لَأَنْتَ إِلَى الْمَنْصُورِ بِالشَّبهِ أَقْرَبُ  
تَصِيرُ إِلَى الْمَنْصُورِ مِنْ حَيْثُ تُنْسَبُ  
فَمَنْ جَانِبٍ جَدُّ وَمَنْ جَانِبِ أَبِ  
قَمْرًا جَلًّا ظَلَمَ الدُّجُونَ  
ابْنُهَا خَيْرُ الْبَنِينَ  
لَنَا حَقَبَ السَّنِينَ  
وَلَا لَهُ شَبَهُ وَلَا خَدِينُ  
يَا خَيْرٍ مِنْ كَانَ، وَمَنْ يَكُونُ  
ذَلَّتْ بِكَ الدُّنْيَا، وَعَزَّ الدِّينُ  
وَمَا اضْمَرُّوا غَيْرَ الَّتِي يُظْهِرُونَهَا  
إِلَيْهِ وَلَادَتَانِ لَهُ اثْنَتَانِ  
وَأَنْتَ وَإِنْ طَابُوا أَعْفُ وَأَطِيبُ  
وَلَادَتَانِ مِنَ الْمَنْصُورِ ثِنْتَانِ  
وَشَبِيهَ الْمَنْصُورِ هَدِيًّا وَرَسْمًا  
فَمَحْمَدُ يَاقُوتُهَا الْمُسْتَخْلَصُ  
وَعَمُّكَ مُوسَى صِنُوهُ الْمُتَخَيَّرُ  
أَبُو أَمِّكَ الْأَدْنَى أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ

(٢) عصر المأمون ٢١١/١.

(١) مختار الأغاني ٤٢٦/١.

ومن ظواهر مديح أبي نواس في الأمين تحول هذا الفن العريق ذي التقاليد المتوارثة إلى شذرات من المقطوعات الشعرية لا تتجاوز عدتها بضعة أبيات حين خلت من مقدمة طلية أو غزلية أو وصف للناقة أو رحلة في الصحراء كما غلب عليها لغة عصرية بألفاظ سهلة وأسلوب سلسل ، كما يظهر ذلك في المقطوعتين التاليتين :

مرحباً . . مرحباً بخير إمام	صِيعٌ من جوهَرِ الخِلافةِ بَحْتاً <sup>(١)</sup>
يا أمينَ الإلهِ يَكَلُوكَ اللهُ مَقِيماً	وظاعناً حيثُ سِرْتَنَا
إنما الأرض كلها لك دار	فلك الله صاحب حيث كنتا
يا شبيهَ المهديِّ جوداً وبذلاً	وشبيهَ المنصورِ هدياً وسَمْتاً
- تَبِيهُ الشَّمْسِ والقمرِ المنيرِ	إذا قلْنَا كَأَنَّكُمَا الأَمِيرُ <sup>(٢)</sup>
فإن يكُ أشبهاً منه قليلاً	فقد اخطأهُما شَبهُ كثيرُ
لأن الشمسَ تغربُ حينَ تُمسي	وإنَّ البدرَ يُنْقِصُه المَسيْرُ
ونورُ محمّدٍ أبداً تامٌ	على وضحِ الطريقةِ لا يُحورُ

في هاتين المقطوعتين وحدة موضوعية لانجدها في المطولات من المدائح ، فكل مقطوعة منها مستقلة بموضوع واحد والمعنى يسري فيها من أولها إلى آخرها هو تمجيد الممدوح أو الإشادة به أو الدعوة له .

ونستطيع أن نلحق وصف حراقات الأمين بهذه المقطوعات المدحبة من حيث تألفها أسلوباً وموضوعاً وكان الأمين أمر حين ملك (بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيماً)<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه الحراقات لنزهته وقد ورد في ديوان أبي نواس ثلاث مقطوعات إحداها في وصف الدلفين (شيء يكون في البحر؟) على حد ما يذكر الحسين بن الضحاك ومطلعها<sup>(٤)</sup> :

قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحماً للماء قد لججا

وأخرى في وصف الحراقة التي هي على شاكلة الأسد :

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٢١ ط . الغزالي .

(٢) نفسه ص ٤٢٢ ط . الغزالي .

(٣) المصدر السابق نفسه ٥٠٩/٨ .

(٤) تاريخ الطبري ٥٠٨/٨ .

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب  
وتقع في عشرة أبيات:

والثالثة وتقع في خمسة أبيات يشيد فيها بما صنع الأمين من حراقات على شاكلة الليث  
والعقاب والدلفين:

ألا ترى ما أعطي الأمينُ أُعطيَ ما لم ترهُ العيونُ  
ولم تكنْ تبلغهُ الظنونُ الليثُ والعقابُ والدلفينُ

ونكتفي بالتوقف عند المقطوعة الأولى التي تدور حول وصف الحراقة التي هي على شاكلة  
الدلفين وفيها يقول أبو نواس<sup>(١)</sup>:

قد ركب الدُّلفينَ بدرُ الدَّجى      مقتحماً للماءِ قد لجَّجا<sup>(٢)</sup>  
فاشرقَتْ دجلةُ من نورهِ      وأسفر الشَّطانُ، واستبَّهجا  
لم تر عيني مثله مُركباً      أحسن إن سارَ وإن عرَّجا  
إذا استحثَّته مجاذيفُهُ      أعنقَ فوق الماءِ أو هملجا<sup>(٣)</sup>  
خصَّ به اللهُ الأمينَ الَّذي      أضحي بتاجِ الملكِ قد توجَّجا

واضح إن أبا نواس لم يتجاوز بمدحه الحراقة إلا إلى صاحبها أي الممدوح، كما كانت نظرته  
إلى ممدوحه من خلال هذه الحراقة مما حقق لمقطوعته - وإن تكن قصيرة - وحدة موضوعية فقد  
جمع بين الحراقة والأمين أو بين الراكب والمطية حين جعل ممدوحه قمرًا تجري به حراسته في نهر  
دجلة فإذا الشيطان مسفران والناس على الشطين قد استبد بهم المرح والطرب فيا له مشهداً رائعاً  
والحراقة تمخر عباب النهر مسرعة مرة ومستأنية أخرى، فذاك هو حظ الأمين من نعيم الدنيا خصه  
به الله كما خصه بتاج الملك.

مديح الأعيان:

- الهاشميون (بنو العباس):

المقصود بالأعيان هنا من هم دون الخلفاء من امراء ووزراء ورؤوساء. وقد غلب مديح هذه

(١) ديوان أبي نواس ص ٤١١ ط. الغزالي.

(٢) لججا: خاض اللجة.

(٣) أعنق: العنق سير سريع. هملج: الهملجة، السير البطيء.

الفئة من السادة على معظم أماديع أبي نواس حتى لقد تجاوزت الخمسين عدا كما وجدنا تلك الأماديع تحفل بجوانب كثيرة من حيوات أولئك القوم السياسية والاجتماعية والفكرية حتى كانت إحدى وثائق تلك الفترة التاريخية التي لا غنى عنها لمن يريد أن يستكمل رسم صورة واضحة للعصر. وهكذا أعطى مديح الأعيان لأبي نواس مجالاً أوسع: كثرة في المدائح وتفناً في المديح مما جعله أجود من مديحه في الخلفاء.

وأول من نشير إليهم من الأعيان هم أسرة الخليفة من بني العباس وقد احتفظ ديوان أبي نواس بأسماء ثلاثة منهم هم: الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور (أبو عيسى) وإبراهيم بن عبدالله القرشي ثم الحجي والعباس بن عبدالله وفي هذا المقام لا يفوتنا أن نكرر إن أبا نواس منذ حلوله ببغداد (كان ينادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يلف مع أحد من الناس غيرهم...) (١)، وكذلك كان يجتمع حوله فتيان من قريش للشرب والصحبة (٢).

أما أبو عيسى الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور فبالرغم من قلة مديح أبي نواس فيه إذ لا يضم ديوانه إلا مدحة واحدة له، فالظاهر إنه كان (شديد المحبة لأبي نواس فلما حبسه الرشيد من شرب الخمر وفيما يذكر في شعره من العظام كتب إلى أبي عيسى) (٣) بالأبيات التالية يسأله أن يشهد له بالتوبة عند الرشيد:

بَلَعَ الصَوْتُ فَنَادَى يَا أَبَا عَيْسَى الْجَوَادَا  
 كُنْ عَمَاداً يَا ابْنَ مَنْ كَانَتْ غِيَاثاً وَعَمَاداً  
 وَتَدَارُكُ جَسَداً قَدْ مَا تَ أَوْ قَدْ قِيلَ كَادَا  
 قُلْ لَهُ - إِنْ قَالَ: هَلْ تَابَ؟: نَعَمْ تَابَ وَزَادَا  
 وَاضْمَنْ التَّوْبَةَ عَنِّي فَإِذَا مَا عُدَّتْ عَادَا

فكلم أبو عيسى الرشيد حتى أطلقه.

أما إبراهيم بن عبدالله ففي ديوان أبي نواس له خمس مدائح منها أربع قصائد أعداد أبياتها على

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٧/١.

(٢) تاريخ الطبري ٥١٧/٨.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص ١٠١.

التوالي: عشرون<sup>(١)</sup>، وست وعشرون<sup>(٢)</sup>، وست وثلاثون<sup>(٣)</sup>، وعشرون<sup>(٤)</sup> ومقطوعة واحدة عدتها سبعة أبيات<sup>(٥)</sup> هذا وقد وقف أبو نواس في ثلاث من القصائد الأربع على الأطلال والرابعة استهلها بمقدمة غزلية<sup>(٦)</sup> استغرقت نحو ستة عشر بيتاً. أما المقطوعة فقد أدارها حول المديح فحسب منوهاً فيها بأبائه ومدوحه ومآثرهم مثنياً على جوده ومكارمه وتالد مجده:

قل لمن سادَ ثم سادَ أبوهُ      قبله ثم قبل ذلك جدُّه  
وأبو جدُّه فسادَ إلى أن      يتلاقى نزارُهُ ومعدُّه  
ثم أباهُ إلى المُبتدَى من      آدمٍ لا أبٌ وأمُّ تعدُّه  
يا ابنَ بُحبوحَةَ البطاحِ عبِداً      لله غوثاً من مستغيثِ يودُّه  
فاهتبلَ عندي النصيحةَ واذخرُ      ني لِقولِ أجيدُهُ وأجدُّه  
واستزدني إلى مكارمِك الغد      رٌ ومجدٍ إليك خيمَ مجدُّه  
عبدريُّ إذا انتمى، أبطحيُّ      تالدٌ نَسسجُه، عتيقُ فرندُّه

أما ما تردد من معانٍ في مدائحه الأخرى فلا يكاد يخرج عن المعاني المألوفة من التنويه بجود مدوحه والإشادة بأبائه والثناء على كريم عنصره ونبل محتده، وإن مدوحه عصمة وعز لمن يلجأ إليه. وربما مدحه بقرابته من الرسول حين أقر جده عثمان بن طلحة على حيازته لفتح الكعبة:

إذا اشتغَبَ الناسُ البيوتَ فإنهم      أولسو الله والبيتِ العتيقِ المحرَّمِ<sup>(٧)</sup>  
رأى الله عثمانَ بن طلحةَ أهلها      فكرمهُ بالمستعاذِ المكرمِ  
وأخطرتُم دون النبيِّ نفوسكم      بضربِ يزيلُ الهامَ عن كلِّ مجتمِ

وقد يغالي في التنويه بجود مدوحه حتى يصل به إلى درجة الحمق كقوله:

جاد إبراهيم حتى جعلوه الناسُ حمقاً<sup>(٨)</sup>

وربما جاء بالمعنى غير المألوف كأن يجعل من المحال وجود جواد آخر مع مدوحه، وأن

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٨٦ ط. الغزالي .  
(٢) نفسه ص ٤٨٨ ط. الغزالي  
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٤٩٠ .  
(٤) نفسه ص ٤٩٤ ط. الغزالي .  
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٩٠ .  
(٦) المصدر السابق نفسه ص ٤٩٣ .  
(٧) نفسه، ص ٤٨٧، ط. الغزالي .  
(٨) المصدر السابق نفسه ص ٤٩٢ .

يتمنى أن لو كان أعداؤه من مالٍ ممدوحه حتى يأتي عليهم، وإن جود ممدوحه لم يبق فقراً ولا فقيراً:

فإذا عُدَّ جوادٌ معه كان مُحالاً<sup>(١)</sup>  
ليت أعدائي كانوا لأبي إسحاقَ مالا  
جاد حتى حصد الفأقة واجتث السُّوالاً

وقد يلجأ إلى التصوير الغريب كأن يشخص المال جاعلاً له رجلاً تشتكي مالِحق بها من كلال بسبب بذل ممدوحه له:

ما لرجلٍ المالِ أمستَ تشتكي منك الكلالاً

أما العباس بن عبيد الله فلعله يكون أشهر ممدوحي أبي نواس من الأعيان، وربما كان مرد ذلك إلى مدحته المشهورة:

أيها المنتاب عن عُقره لست من ليلي ولا سمره

بالإضافة إلى ثلاث مدائح أخرى إحداها مقدمتها خميرية<sup>(٢)</sup>:

غرَدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ فأسقني.. طاب الصُّبُوحُ  
وأسقني حتى تراني حسناً عندي القُبُوحُ  
قهوةٌ تذكر نُوحاً حين شاد الفُلكَ نوحُ  
نحن نخفيها، وبأبى طيبُ ربحٍ فتفوحُ  
فكان القومُ نُهبى بينهم مسكٌ ذبحُ

والأخريان بدأهما بالوقوف على الأطلال يقول في مقدمة الأولى<sup>(٣)</sup>:

حلت سعاداً، وأهلها سرفاً قوماً عدى، ومحلَّةً فذفا  
واحتل أهلك سيفَ كاظمةٍ فأشتت ذاك الهجرُ واختلفاً

ويقول في مقدمة الثانية:

ديارِ نوارٍ، ما ديارِ نوارٍ كسؤنك شجواً هنَّ منه عوارٍ

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٨٩، ط. الغزالي.

(٢) نفسه ص ٤٣٢ ط. الغزالي.

(٣) نفسه ص ٤٣٤ ط. الغزالي.

أما عروس مدائح في العباس بل في الأعيان كافة فهي رأيته التي اعتبرها بعض الكتاب (من أجود قصائد المديح في الشعر العربي)<sup>(١)</sup>. أو (أشهر مدائح أبي نواس إطلاقاً)<sup>(٢)</sup>.

وإنها أشهر قصائد أبي نواس جميعاً عند أهل اللغة والأدب<sup>(٣)</sup>.

وقد ربط الأقدمون بين هذه القصيدة وبين قصيدة لامرئ القيس جاءت على نفس الروى والوزن وهي قوله:

رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِي تُعَلِّ مُخْرَجٍ كَفَّيهِ مِنْ سُوْرِهِ  
مفضلين قصيدة أبي نواس عليها. وهي التي تبدأ بهذا البيت:

أيها المنتاب عن عُفْرِهِ لَسْتُ مِنْ لَيْلَى وَلَا سَمَرِهِ<sup>(٤)</sup>

كذلك أثار هذه المدحة من ردود الفعل الأدبية والفنية ما لم تشره مدحة أخرى نواسية ففي «زهر الآداب»: (قال عمر الوراق سمعت أبا نواس ينشد قصيدته:

أيها المنتاب عن عُفْرِهِ . . . ، فحسدته عليها فلما بلغ إلى قوله:

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقًا وَتَرَأَى الْمَوْتَ فِي صُورِهِ . .  
فقلت: ما تركت للنابعة شيئاً حيث يقول:

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ)<sup>(٥)</sup>

وكذلك لاحظ المحدثون ما اشتملت عليه هذه القصيدة من قدرات عقلية على تفتيق المعاني. من مثل قول أبي نواس في نفس القصيدة في شخص كان يبغضه:

كَمَنْ الشَّنَّانُ فِيهِ لَنَا كُكْمُونَ النَّارِ فِي حَجْرِهِ

ومعلوم إن نظرية الكمون هي إحدى النظريات التي تحاور فيها المعتزلة طويلاً، وخلاصتها إن الله خلق العالم دفعة واحدة ثم أكمُن بعضها في بعض كآدم أكمُن فيه أبناءه. ومن الاعتراضات التي أثارتها هذه القصيدة أيضاً قوله: يمدح العباس بن عبيدالله:

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ نَفْرِهِ

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص ٢٩٥.

(٢) أبو نواس بين التخطي والالتزام، ص ٣٣٤. (٣) أبو نواس، لعبد الرحمن صدقي، ص ١٦١.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٥٨. (٥) زهر الآداب، للحصري، ص ٩٩٨.

فالجاحظ معاصر أبي نواس يتهمه بالغللو ويقول عنه (وأما أبو نواس فقد كان يتعرض للقتل بجهدته وقد كانوا يعجبون من قوله . . .) (١).

كذلك لما أنشد أبو عبد الله بن الأعرابي هذه القصيدة (قال أحسن والله لو تقدم هذا الشعر في صدر الإسلام لكان في صدر الأمثال السائرة) (٢).

وكان أبو الأصفر، من رواة أبي نواس والمعجبين بشعره خاصة هذه القصيدة، قد قال حين سمع أبا نواس ينشد: كيف لا يدنيك . . . ، (علمت إنه كلام رديء، موضوع في غير موضعه وإنه مما يُعاب به . لأن حق سيدنا رسول الله (ﷺ) أجدر أن يضاف إليه، ولا يضاف هو إلى أحد فلما رأى ذلك في وجهي فقال لي: ويلك: إنما أردت أن رسول الله (ﷺ) من القبيل الذي هو منه، كما قال حسان . . .) ويعلق أبو الأصفر على دفاع أبي نواس عن نفسه بقوله: (فعلمت أنه ضرب من الاحتيال . . .) ثم اعتراض آخر، قال والكلام لأبي الأصفر: (فقلت له: أرأيت إلى قولك:

كَمِنَ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجَرِهِ

قال: رددت التذكير إلى النور. ومثل هذا في أشعارهم كثير إن فتشته . قال: فقلت إنه لا يقول شيئاً إلا عن علم وحجة بما يقوله). ويعلق كل من الكسائي وأبي العباس على هذا البيت، فغلطه الكسائي لأنه أراد في حجرها فغلط، وأما أبو العباس فقال: إنما أراد في حجره فرده إلى القادح كما قال قوم: إنما رد الحجر إلى الكمون. وكيف كان فقد أحسن فيه) (٣) كذلك كان هناك تساؤل عن معنى قول أبي نواس في البيت الثاني من القصيدة:

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المُرَّ من ثمره

فأجاب: (كانت لي صديقة من أهل الحرماز، وكنت أحبها فبلغني إنها تختلف إلى رجل من أهل البصرة فلم أصدق ذلك فتبعتها يوماً حتى دخلت منزله، فرجعت إلى منزلي وأنا مغموم فرميت بنفسي فجاءت فرمت بنفسها إلى جانبي فحولت وجهي عنها إلى الحائط، وتناومت فنمت فرأيت كأن قائلاً يقول لي قل:

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المُرَّ من ثمره

(١) الحيوان، ٤/٤٥٤، وانظر الكامل للمبرد ١/٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٦١.

(٣) نفسه ١/١٦٣.

فقدت فأخرجتها عني ، وأدخلت البيت في قصيدتي هذه<sup>(١)</sup> . واضح إن الجو العام الذي ولج منه الشاعر إلى ممدوحه جو حزين مشوب بخيبة الأمل وضياح الظفر كما يغلب عليه التأمل والمناظرة بين نظيرين مما جعل الحدث بذرة تنث القلق والجزع في عروق القصيدة فإذا بالشاعر يحاول أن يوائم بين حصاد الحدث من غيره ومرارة وخيبة وبين ممدوح عظيم يواده ويحسن إليه وكان لا بد للشاعر أن يخلق حلاً وسطاً لا يضيع به خميرة التجربة المريرة ولا يتجاهل ممدوحه النبيل وهكذا فجر الحدث الذي أملى على الشاعر والواقع (الممدوح) الذي استملاه الشاعر في نفسه شرارة هذه العمارة الفخمة من البناء الشعري العجيب .

يقول «ابن رشيق» : (إن الشعر قفل أوله مفتاحه وينبغي للشاعر أن يوجد ابتداء شعره ، فإنه أول ما يشد به السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة . . . )<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الشاعر قد شد هنا بالمطلع العجيب :

«أيها المتتاب عن عفره . . . » فإنه سرعان ما يعود إلى نفسه قائلاً فليمض ذلك الغادر على هواه ، لكنني لن أمنع طائراً من شجرة ذقت مرها ، وأنا احاذر ما تتناقله الألسن في غد قريب فما أنا بغافل عما يعتور طريقي من مخاطر ، فامض أيها الغادر من غير منة فما مثل المنة تكدير للمعروف :

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ	قد بلوتُ المُرَّ من ثمره
فاتصل إن كنت متصلاً	بقوى من أنت من وطره <sup>(٣)</sup>
خفت ماثور الحديث غداً	وغد أذنى لمنظرة
خاب من أسرى إلى بلد	غير معلوم مدى سفره
وسدته ثني ساعده	سنه حلت إلى شفره <sup>(٤)</sup>
فامض لا تمن علي يداً	منك المعروف من كدره

ولا ينسى أبو نواس أن يثري مدحته بالحكمة والموعظة فيها هو بين فتیان كانوا يلوذون به ، نعم الناصح الأمين أما ابن العم فقد كان الشر كامناً في نفسه كمون النار في حجرها . وقد علق «ابن عبد ربه» على هذا المعنى بأنه من حكمة الهند (وفي كتاب الهند الحازم يحذر عدوه على كل حال ،

(١) أخبار أبي نواس ، لابن منظور ١/١٦٣ .

(٢) العمدة ١/٢١٨ .

(٣) القوى : المراد بها الأسباب .

(٤) ثني ساعده : منعطفه أو موضع اثنتائه . الشفر : أصل منبت الشعر في الجفن .

يحذر الموائبة إن قرب والمعاودة إن بعد، والكمين إن انكشف والاستطراد إن ولي والكرة إن فر؛<sup>(١)</sup>.

رُبَّ فَيْتَانٍ رَبَّاتُهُمْ مَسْقَطُ الْعَيْوِقِ مِنْ سَحْرَةٍ<sup>(٢)</sup>  
فَاتَّقُوا بِي مَا يَرِيهِمْ إِنَّ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حَذَرَةٍ  
وَابْنُ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا قَدْ لَبَسْنَاهُ عَلَى عَمْرَةٍ<sup>(٣)</sup>  
كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكَمُونِ النَّارِ فِي حَجَرَةٍ

واستكمالاً لمقومات المدحة التقليدية يأتي أبو نواس ببيتين من الغزل يشير فيهما إلى حسناء عاطته من رضاب ثغرها العذب ما روى ظمأه وهو يهصر خصرها بين يديه هصرأ:

وَرُضَابٍ بَتُّ أَرْشَفُهُ يَنْقَعُ الظَّمَانَ مِنْ خَصْرَةٍ<sup>(٤)</sup>  
عَلَيْهِ خَوْطٌ إِسْحَلَةٌ لِأَنَّ مَتْنَاهُ لِمُهْتَصِرَةٍ

ثم يتلو ذلك القسم المشترك في كل مدحة قديمة نموذجية وهو الرحلة الذي فيه يتبدى أبو نواس ويرحل مع الراحلين في طرق برية موحشة تتناثر على جنباتها قطعان بقر الوحش تمضي به راحلة قوية سريعة حتى لترى الزبد على شديقها وكأنه في التماعه كالأزهار على شجرها. أو قطع القطن تذروها الرياح . . . فيا لها من راحلة قامت بقضاء حاجاتي دون كلال، حتى أدنتني من ملك عظيم هو أمان لكل خائف:

ذَا، وَمَغْبِرٍ مَخَارِمُهُ تَحْسِرُ الْإِبْصَارُ عَنْ قَطْرَةٍ<sup>(٥)</sup>  
لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقْرَةٍ<sup>(٦)</sup>  
خَاصِ بِي لُجْجِيهِ ذُو جِرْزٍ يُقَعَمُ الْفَضْلِينَ مِنْ ضُفْرَةٍ<sup>(٧)</sup>

(١) العقد الفريد ١/٢١٤.

(٢) ربأتهم: حرسهم. العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة.

(٣) الغمر: الحقد.

(٤) الخصر: البرودة والضمير عائد للرضاب.

(٥) المخارم: الطرف الجلية. تحسر الأبصار: تكل وتتقطع من طول المدى. القطر: الناحية.

(٦) الأجال: جمع مفردة الأجل وهو القطيع من بقر الوحش.

(٧) ذو جرز: الجرز الصدر من الإنسان ووسطه والمراد به الدابة التي يركبها. الضفرة: بضمين جمع الضفر وهو ما

يشد به البعير كالحزام.

يُكْتَسِي عَثُونُهُ زَبْدًا      فنصيلاًهُ إلى نَحْرِهِ<sup>(١)</sup>  
ثم يَعْتَمُ الحِجَاجُ بِهِ      كاعتمام الفُوفِ في عُشْرِهِ<sup>(٢)</sup>  
ثم تَذْرُوهُ الرِّيحُ كَمَا      طار قطن النَّدفِ عن وَتْرِهِ  
أما المديح فقد استغرق الخمسة عشر بيتاً الباقية من القصيدة، وقد استقصى أبو نواس من الفضائل المشتركة لعصر ممدوحه غاياتها فأضفاها عليه، وذلك حيث يقول:

ثم أدناني إلى ملكٍ      يأمنُ الجاني لدى حُجْرِهِ  
تأخذ الأيدي مَظالمَهَا      ثم تستذري إلى عُصْرِهِ<sup>(٣)</sup>  
كيف لا يدنيك من أَمَلٍ      من رسولُ الله من نَفَرِهِ  
فاسألُ عن نَوءٍ تُؤمَلُهُ      حَسْبُكَ العباسُ من مَطَرِهِ<sup>(٤)</sup>  
ملكٌ قَلَّ الشَّبِيهُ لَهُ      لم تقع عينٌ على خَطَرِهِ<sup>(٥)</sup>  
لا تُغَطِّي عَنْهُ مَكْرَمَةٌ      برُبي واد، ولا خَمْرِهِ<sup>(٦)</sup>  
ذُلَّتْ تلك الفِجَاجُ لَهُ      فهو مختارٌ على بصرِهِ<sup>(٧)</sup>  
سبق التفریطُ رائدُهُ      وكفاه العَيْنُ من أُنْثَرِهِ<sup>(٨)</sup>  
وإذا مَجَّ القَنَا علقاً      وتراءى الموتُ في صَوْرِهِ<sup>(٩)</sup>  
راح في ثِنْيٍ مُفَاضِيَتِهِ      أسدٌ يدمى شَبَا ظُفْرِهِ<sup>(١٠)</sup>

- (١) العثون: شعرات طوال تحت حنك البعير - النصيلان: اللحيان.  
(٢) الحجاج: العظم المشرف على غار العين، الفوف: الزهر على التشبيه. العشر: شجر. يشبه الزيد على عيون البعير بالزهر على العشر.  
(٣) تستذري: تستظل. العصر: بالتحريك الملجأ.  
(٤) النوء: كوكب وظهوره علامة على سقوط المطر.  
(٥) الخطر: الشرف.  
(٦) الخمر: بالتحريك ما وارى من شجر أو جبل أو نحو ذلك.  
(٧) الفجاج: المسالك الواسعة بين الجبال. والمقصود بها فجاج المكارم.  
(٨) التفریط: التقصير.  
(٩) القنا: جمع قناة. العلق: الدم.  
(١٠) المفاضة: الدرع الواسعة. الشبا: جمع الشبابة وهي حد كل شيء.

تتأبى الطيرُ غدوتهُ ثقةً بالشِبعِ من جَزَرِه<sup>(١)</sup>  
وترى الساداتِ مائلةً لسليلِ الشمسِ من قمره  
فهمُ شَتَى ظنونُهُمُ حذرَ الممكنونِ من فكره  
وكريمُ الخالِ من يَمَنِ وكريمُ العمَمِ من مُضِرِه  
قد لبستُ الدهرَ لبسَ فتى أخذَ الآدابَ عن غيرِه

البرامكة:

أما البرامكة فهم أوسع طبقة الأعيان وأعظمهم خطراً، وكانوا من أعرق الأسر الفارسية التي خدمت الدولة العباسية. والظاهر إن «برمك» ليس اسماً بل لقباً كان يُطلق على الموبذ في «نوبهار» وهو معبد للمجوس بمدينة بلخ<sup>(٢)</sup> أما خالد بن برمك فقد كان من أكبر دعاة الدولة العباسية، وقيل إن السفاح استوزره<sup>(٣)</sup>. بل قيل إنه كان يعمل عمل الوزير ولا يسمى وزيراً تطيراً مما جرى على أبي سلمة الخلال<sup>(٤)</sup>، وكثر الوافدون على بابهِ ومدحه الشعراء وانتجعه الناس، وكان الوافدون يسمون من قبل سؤالاً فاستقبح خالد هذا الاسم لهم ومنهم الأشراف والأكابر فسماهم الزوار<sup>(٥)</sup>. ويقال إنه لم يبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، وفيهم يقول أبو الغول الشاعر:

أولادُ يحيى بن خالدٍ وهمُ أربعةٌ سيّدٌ ومتبوعٌ  
الخير فيهم إذا سألت بهم مفرّق فيهم ومجموع<sup>(٦)</sup>

أما يحيى بن خالد فقد كان عضد أبيه خالد في الملمات، وقد ولد سنة ١٤٠هـ واختاره المهدي في سنة ١٦٣هـ كاتباً ووزيراً لابنه الرشيد حيث وقف معه ضد أخيه الهادي حين أراد الأخير تنحيته عن ولاية العهد، حتى إذا ولي الرشيد الخلافة استوزره وقلده أمور الدولة<sup>(٧)</sup> وهكذا قامت للبرامكة دولة يصفها صاحب «الآداب السلطانية» بأنها كانت (غرة في جبين الدهر وتاجاً على مفرق العصر. . أسواق الأدب عندهم نافقة ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية. . وهم ملجأ اللهيف

(١) تتأبى الطير غدوته: تقصدها وتتعمدها. جزره: الجزر جمع الجزور البعير والمراد قتلاه في المعركة.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (برمك) الترجمة العربية. (٣) وفيات الأعيان ٦/٢٢٠.

(٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٢٥. (٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) مروج الذهب ٣/٣٨٠. (٧) المصدر السابق نفسه ٣/٣٤٨.

ومعتصم الطريد . . .) (١) وكان ليحيى من الأولاد أربعة هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى وأشهرهم جعفر والفضل . وكان البرامكة طيلة مدة يحيى مقصداً لمعظم شعراء العصر، حتى جعلوا للشعر في بلاطهم ديواناً اختاروا له الشاعر أبان بن عبد الحميد اللاهقي قيماً<sup>(٢)</sup>، وقد نقل أبان هذا ويطلب منهم<sup>(٣)</sup> جملة من الكتب الفارسية إلى اللغة العربية نظماً منها كليلة ودمنة بالشعر المزدوج<sup>(٤)</sup> وكان الفضل أكثر إخوانه إكراماً للشعراء، حتى قالوا فيه:

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شِعْرَاءَ<sup>(٥)</sup>  
 فاستحسن الناس من الشاعر هذا القول وعابوا على الشاعر كونه مفرداً فزاد عليه أبو العذافر ورد بن سعد العمي:

عَلِمَ الْمَفْحَمِينَ أَنْ يَنْطَقُوا الْأَشْعَارَ مِنَّا وَالْبَاخِلِينَ السَّخَاءَ<sup>(٦)</sup>

ومن الشعراء الذين وفدوا على البرامكة الفضل الرقاشي وأشجع السلمى ومروان بن أبي حفصة، ودعبل الخزاعي، ومسلم بن الوليد وداوود بن رزين وأحمد الجرجاني ومحمد بن منذر والعتابي وأبو نواس وغيرهم وأبو قابوس النصراني الحيري من الشعراء الذين انقطعوا إليهم<sup>(٧)</sup>، حتى إن صاحب «وفيات الأعيان» يقول: (وقد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم . . .) (٨) وكانت تقوم بين هؤلاء الشعراء منافسات حامية<sup>(٩)</sup> طمعاً في ود البرامكة وعطاياهم . فأبان اللاهقي يحاول إقصاء أبي نواس من الوصول إليهم<sup>(١٠)</sup> وأبو العتاهية يحسد سلماً الخاسر على مكانته عند الفضل بن يحيى حتى سمى بسلم الرابع لكثرة ما أخذ منه، بعد أن كان اسمه سلماً الخاسر<sup>(١١)</sup> مما دعا أبا العتاهية إلى القول:

(١) الفخري في الأدب السلطانية ص ١٦١ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢١١ .

(٣) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ و ١٧٣ .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٩٥ ، والورقة ص ٤ .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢١٠ . (٨) وفيات الأعيان ٤ / ٣٥ .

(٩) ديوان أبي نواس برواية الأصفهاني ونشر فاغتر ٢ / ٨١ ، وأخبار أبي نواس لأبي هفان ص ١٨ ، طبقات الشعراء

لابن المعتز ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(١١) المصدر السابق نفسه ص ٢٠٤ .

(١٠) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢١١ .

إِنَّمَا الْفَضْلُ لَسَلْمٍ وَحَدَهُ لَيْسَ فِيهِ لِسْوَى سَلْمٍ دَرَكٌ

أما عن أماديح أبي نواس في البرامكة فليس في ديوانه ما يدل على أنه كان مقرباً منهم كثيراً بالدرجة التي تصورها المصادر القديمة<sup>(١)</sup> وبعض الدارسين المحدثين والمعروف إن أبا نواس كان يقف في وجهه من دون البرامكة ثلاثة شعراء من أعدائه هم أبان اللاحقي الذي هجاه أبو نواس هجاء مرأ<sup>(٢)</sup>، وأحمد بن سيار الجرجاني الذي غمط أبا نواس مكانته لدى الفضل بن يحيى وبخسه حقه في تقدير مكافئته<sup>(٣)</sup>، وأما الفضل الرقاشي الذي كان من الشعراء المنقطعين للبرامكة فلعله يكون من أكثر الشعراء المهاجرين لأبي نواس<sup>(٤)</sup> وهكذا لم نجد في ديوان أبي نواس إلا ثلاث مدح في البرامكة واحدة في الوزير يحيى بن خالد والأخريين في الفضل ابنه المعروف بجوده وتقريبه الشعراء. أما أخوه جعفر فالظاهر إن أبا نواس لم يكن ذا حظوة عنده وربما كان لأبان اللاحقي عدوه عند البرامكة يد في اقصائه عن ديوان جعفر، على أن بعض أهاجي أبي نواس في جعفر يدل على أنه كان من ممدوحيه حسبما يتضح في قوله يهجو في صيغة جواب عن سؤال لرجل صادفه في الطريق<sup>(٥)</sup> :

فَقَالَ وَأَزْكَئِنِّي<sup>(٦)</sup> شَاعِراً وَأَزْكَئْتَهُ فَطِناً مُنْكَرَا  
أَتَنْشِدُنِي بَعْضَ مَا صَغَتْهُ وَلَا تَدْعِي الْأَجُودَ الْأَفْخَرَا  
فَأَنْشِدْتَهُ مِدْحَ الْبَرْمَكِيِّ أَبِي الْفَضْلِ أَعْنِي الْفَتَى جَعْفَرَا  
فَأَعْجَبَنِي ظَرْفُهُ إِذْ يَقُولُ مَدِيحُكَ دَرٌّ فَهَلْ دَرَّرَا

واضح إن أبا نواس مدح جعفر ولكنه لم يحسن عطاءه. وفي كلمة أخرى يهجو جعفر للسبب نفسه، أي للبخل إذ مدحه فلم ينل منه ما ينفي عنه الخلة وسوء الحال<sup>(٧)</sup>.

قَالُوا امْتَدَحْتَ فَمَاذَا اعْتَضْتَ قُلْتُ لَهُمْ

خَرَقْتُ النَّعَالَ وَابْلَاءُ السَّرَاوِيلِ<sup>(٨)</sup>

- 
- (١) دائرة المعارف الإسلامية (أبو نواس).  
(٢) المصدر السابق نفسه ٨١/٢.  
(٣) المصدر السابق نفسه ٦١/٢.  
(٤) ديوان أبي نواس ص ٥٥٣ ط. الغزالي، ص ٦١٨ ط. بغداد، ص ١٨٨ ط. أصاف، ١١٥/٢ ط. فاغز. (٥) أزكته: علمه وفهمه وتفريسه.  
(٦) الديوان ص ٥٢٠ ط. الغزالي، ص ٦٨٢ ط. بغداد، ص ١٧٣ ط. أصاف، ٥١/٢ ط. فاغز.  
(٧) اعتضت: طلبت العوض.  
(٨)

قالوا فسمّ لنا هذا فقلّت لهم  
وصفي له يعدل التصريح في القيل  
ذاك الأمير الذي طالت علاوته  
كأنه ناظر في السيف في الطول<sup>(١)</sup>

وفي نص آخر، يظهر إن أبا نواس كان من ندمان جعفر، ولكن عربده على ندمائه لم تكن  
تروق لأبي نواس<sup>(٢)</sup>:

ما في النّبذ مع المعربذ لذة وابن ليحيى لاطم بيدّين  
ريحانه بدم الشجاع ملطخ وتحيّة النّدمان قلّع العين  
لا تشربن وجعفرأ في مجلس أبداً، ولا تحمل دم الاخوين<sup>(٣)</sup>

كما تنقل لنا المصادر القديمة على لسان أبي نواس قوله<sup>(٤)</sup> لَمّامات جعفر بن يحيى : (لا يكون  
في الدنيا أكرم منه، هجوته وقلت فيه :

ولست وإن أخطأت في مدح جعفر بأول إنسان... في ثيابه<sup>(٥)</sup>

فأمر لي بعشرة آلاف درهم، وقال: اغسل بها ثيابك التي... فيها) وتبقى أماديحه في الوزير  
يحيى بن خالد وابنه الفضل بن يحيى، وهي ثلاث، وقد سبقت الإشارة إلى أن أبا نواس سعى حتى  
يكون من ندماء يحيى<sup>(٦)</sup> ولكنه لم يوفق وهكذا رأيناه يشيد بجوده رغم هجائه ابنه جعفر، بل رغم  
هجائه البرامكة عامة كما سنذكر ذلك في الحديث عن هجائه.  
أما مدحته في يحيى فقد نزع فيها أبو نواس متزعا حضارياً شعوبياً لا عهد لنا بمثله وذلك حين  
ملأ تلك المدحة بالمصطلحات والرموز الأجنبية حيث يقول<sup>(٧)</sup>:

(١) العلاوة هنا: أعلى الرأس أو أعلى العنق، وكان جعفر بن يحيى أول من عرض الجربانات، جيب القميص لطول  
عنقه وكانوا يقولون: جربانات برمكية.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٥٥٥، ط. الغزالي.

(٣) دم الأخوين: عصارة نبات في الهند خالصة الحمرة شديدة الحرارة.

(٤) محاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٠.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٥٥٥، ط. الغزالي.

(٦) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ١٧، والعقد الفريد ٢/ ٢٠٩.

(٧) ديوان أبي نواس ص ٤٧٦، ط. الغزالي، ص ٣٦٨، ط. بغداد. ١٥١/١، ط. فاغتر.

لا أحطُ الحِزَامَ طوعاً عن المحر  
 فإذا ما وردتُ بحر أبي الفض  
 صورة المشتري لدى بيت نورا  
 ليس زاويش حين سار أمام ال  
 منك أسخى بما تشحُّ به الأن  
 لا.. وبهَرَامُ يستقلُّ سماء ال  
 منك أمضى لدى الحرورِ ولا أه  
 ذُوفِ دُونَ ابنِ خَالِدِ الوهَابِ<sup>(١)</sup>  
 ل نفضتُ النحوسَ عن أتواي  
 لليل، والشمسُ أنتَ عندَ النَّصَابِ<sup>(٢)</sup>  
 حُوتِ والبدرُ إذ هوى لَانصَابِ<sup>(٣)</sup>  
 فسُ عند انتقاصِ دَرِّ الحِلابِ  
 غَرَبِ واللَّيْلُ زَائِدٌ في الحِسابِ<sup>(٤)</sup>  
 وُلُ في العينِ عندَ ضَرْبِ الرِقَابِ

ويلاحظ أن هذه المدحة قد خلت من رواسم المديح التقليدية من وقوف على الأطلال أو نسيب أو رحلة في صحراء أو وصف لراحلة وقد حرص أبو نواس على التنويه بثقافة الممدوح وبعلمه فالمعروف إن يحيى رغم كونه من دهاقنة السياسة العباسية إلا إنه كان (ذا علم ومعرفة وبحث ونظر)<sup>(٥)</sup> وكان له (مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل) كما كان يتشغل بحساب النجوم<sup>(٦)</sup>. بل كان أعلم الناس بالنجوم<sup>(٧)</sup> وفي مجلسه دار الحوار في المسألة الزنبورية بين سيويه والكسائي<sup>(٨)</sup> هذا ولا بد أن نلاحظ ما بين بيت النار حيث كان برمك جد الأسرة يخدم كأحد سدنة التوبهار معبد المجوس بمدينة «بلخ» حيث توقد فيه النيران وبين بيت نور الليل الواردة في مدحة أبي نواس من الجناس مما يجعلنا نرجح أن أبا نواس قصد إلى التنويه بسابقة ممدوحه في بني قومه من غير التصريح بما كان يخفي هذا الممدوح من مجوسية عرفت فيها البرامكة عامة<sup>(٩)</sup> كذلك لم يخل تنويه أبي نواس بوجود ممدوحه من شعوبية ظاهرة فبعد أن أضفى

(١) المحذوف: اسم فرس الشاعر. وقد ورد في طبعة الغزالي معنى المحذوف: الرق وليس له وجه هنا.

(٢) يروى عند النَّصَابِ، إذا كانت الشمس في النصاب أي في وسط السماء.

(٣) زاويش والحوت: نجمان. وزاويش: اسم المشتري بالرومية فإنها تسمية زيوش أو هوزيوس (معجم الأساطير اليونانية واللاتينية).

(٤) في ط. بغداد ص ٣٦٩: «لا وبهَرَامُ يستقلُّ مع العقرب في الليل زائد في الحساب» وبهَرَامُ: اسم العريخ والعقرب: برج من بروج السماء.

(٥) مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٧٩.

(٦) الوزراء والكتّاب للجهمياري ص ٢٥٣. (٧) المصدر السابق نفسه ص ٢٤٩.

(٨) العربية ليوهان فك ص ٦١، تاريخ بغداد ١٢/١٠٥.

(٩) تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) لمحمد الخضري، ص ١١١.

عليه صفة البحر مما هو معروف ومألوف جعله في علو شأوه وسموسمته مثل كوكب المشتري إذا كان في السرطان وهو شرفه وهو بيت نور الليل وهو القمر. . . ومثل الشمس أيضاً وهي في وسط السماء وأيضاً:

هو أسخى من زاويش رئيس الالهة عند اليونان<sup>(١)</sup> وجوتتر عند الرومان وهو يسير أمام الحوت وأبذل لما تمسك عن بذله النفوس عند الحاجة التي عبر عنها بانتفاص «در الحلاب» وهي صورة إعرابية خالصة تناقض الصورة الأعجمية برموزها الأسطورية.

أما عن مضاء يحيى بن خالد في الحروب فدونها عزيمة بهرام أي المريخ ومضاؤه وهو في برج «العقرب» في ليالي الخريف الطويلة.

أما مدحتاه في الفضل بن يحيى فمتناقضتان أشد التناقض في مغزاهما وصورتيهما الأولى أو الأقدم ذات بداية متفائلة استهلها بقطعة من الغزل الرقيق استغرق في الأبيات التسعة الأولى صح أن تكون مقطوعة غزلية مستقلة بذاتها حتى وجدنا الشاعر «ابن منذر» يفصل بين شطري هذه القصيدة: الغزل والمدح بقوله لمسعود بن بشر حين أنشده مدحة أبي نواس هذه (أحسن والله صاحبك في التشبيب وأغرب علينا في صفة النعال وتصويره إياها مطايا). ويقول صاحب العمدة أيضاً: (ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيراً والمدح قليلاً. . .)<sup>(٢)</sup> فإذا خلت القصيدة من مثل هذا البسط من النسيب كانت بتراء<sup>(٣)</sup> أما الجزء الأول من هذه المدحة فهو:

طرحتم من الترحال ذكراً فغمنا	فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا <sup>(٤)</sup>
زعمتم بأن البين يحزنكم نعم	سيحزنكم علمي ولا مثل حزننا
تعالوا نقارعكم لنعلم أينا	أمض قلوباً، أو من اسخن أعينا
أطال قصير الليل يا رحم عندكم	فإن قصير الليل قد طال عندنا <sup>(٥)</sup>
وما يعرف الليل الطويل وغمه	من الناس إلا من تنجم أو أنا <sup>(٦)</sup>

(١) معجم الأساطير اليونانية واللاتينية، لأمين سلامة، (زيوس).

(٢) العمدة ٢٣٢/١ . المصدر السابق نفسه ٢٣١/١ .

(٣) النديوان ص ٤٧٤ ط . الغزالي، ص ٥٤٠ ط . بغداد، ص ٧٥ ط . أصاف، و ١٥٧ ط . فاجنر.

(٤) رحم: ترخيم رحمة اسم.

(٥) في طبعتي بغداد وفاغنز: ينجم يبكي منذ تطلع النجوم إلى أن تغرب أي الليل كله. وفي طبعة الغزالي تنجم:

رعى النجوم من سهر أو عشق أو عرف النجوم ودرسها فهو المنجم.

خَلِيُون من أوجاعنا يعذُّوننا      يقولون لم تهوون؟ قلنا لذُنِينَا  
يقومون في الأقوام يحكُونُ فَعَلْنَا      سفاهةً أحلام وسخريةً بنا  
فلو شاء ربي لابتلاهْم بما به      ابتلانا فكَانُوا لا عَلَيْنَا ولا لَنَا  
وقد ختم أبو نواس هذا المقطع من القصيدة بالتهديد بالشكوى إلى ممدوحه حتى يجمعه  
بمحبوبه:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد      هواك لعل الفضل يجمع بيننا  
على أن مذهب أبي نواس في هذا الجزء من المدحة مذهب غريب جعل الفضل بن يحيى  
يقول له: (ما زدت على أن جعلتني قواداً.. فقال: أصلح الله الأمير إنه جمع تفضل لا جمع  
توصل...<sup>(١)</sup>).

وقد سوغ ابن رشيق ما جاء به أبو نواس من الشكوى إلى ممدوحه ليجمعه بمن يحب مقارنا  
بينه وبين المتنبي في قوله:

ها فانظري أو فظني بي ترى حرقاً      من لم يذق طرفاً منها فقد وألاً  
علَّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي      إلى التي تركتني في الهوى مثلاً  
(فقد تمنى أن يكون له الأمير قواداً وليس هذا من قول أبي نواس: سأشكو إلى الفضل...،  
في شيء لأن أبا نواس قال: «يجمع بيننا» ثم أتبع ذلك ذكر المال والسخاء به فقال: أمير رأيت  
المال...<sup>(٢)</sup>).

أما الجزء الثاني من هذه المدحة ويقع في تسعة أبيات فقد أداره حول المديح المحض يقول  
فيها<sup>(٣)</sup>:

أميرٌ رأيتُ المالَ في نعمائه      ذليلاً مهينَ النفس بالضيمِ مُوقنا  
إذا ضنَّ ربُّ المالِ أعلنَ جُوده      بحَيِّ على مالِ الأميرِ وأدنا  
وللفضلِ صولاتٌ على صلبِ ماله      ترى المالَ فيها بالمهانةِ مُدعنا  
وللفضلِ حصنٌ في يديه محصنٌ      إذا لبس الدرعَ الحصينةَ واكتنى

(١) الموشح للمرزباني، ص ٤٢٤، أخبار أبي نواس لابن منظور، ٤٨/٢ وديوان أبي نواس. ط. فاجتر ١/١٦١.

(٢) العمدة، لابن رشيق، ٢٣٥/١.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٧٤ ط. الغزالي.

إليك أبا العباس من دون من مشى  
فلائص لم تُسقط جنيناً من الوجى  
نُزور عليها من حرامٍ محرّمٍ  
كأنّ لديه جنةً بابليةً  
أغرُّ له دياجةً سابريةً  
عليها امتطينا الحضرمي الملسنا<sup>(١)</sup>  
ولم تدرِ ما قرعُ الفنيقِ ولا الهنا<sup>(٢)</sup>  
عليه بأن يعدو بزائره الغنى  
دعا ينُعمها الجناء منها إلى الجنى<sup>(٣)</sup>  
ترى العتقَ فيها جارياً متيناً<sup>(٤)</sup>

امتدح أبو نواس جود الفضل بن يحيى بمعان تكاد تكون كلها مألوفة تقليدية من بذله وإذلاله للمال حين يشح غيره، ولكن الطريف أن الفضل يدعو إلى ماله كما يدعو المؤذن إلى الصلاة.

كذلك مدحه بالشجاعة وبأنه خواص لحومة الوغى. ومن طريف ما جاء به أبو نواس أن زائر الفضل لا يعرف الفقر إلى جواره وهنا تطالعنا إشارة تاريخية استوحاها أبو نواس ولا شك من تاريخ العراق القديم حين جعل مجاور الفضل ينعم بما ينعم به الزائر لجنة بابلية قطوفها دانية.

أما رحلته إلى ممدوحه فقد كانت على رواحل لم تعرف ضراب الفحل ولا دهان القطران يقصد بها النعال الطويلة اللطيفة الشكل على هيئة اللسان من صنعة حضرموت.

وقد فسر ابن رشيق فلائص أبي نواس بأنه قصد ممدوحه راجلاً وإن أخرج المعنى مخرج اللغز<sup>(٥)</sup>. وهذا مما ألف عن العرب<sup>(٦)</sup> وأنه جاء في شعر المتقدمين والمتأخرين.

أما مدحة المدائح البرمكية فهي التي قالها على الأرجح سنة ١٨٧ هـ عام نكبة البرامكة والتي تطير الفضل بن يحيى من مطلعها ومن خاتمتها أيضاً. يقول في مستهلها<sup>(٧)</sup>:

أرُوع البلى إن الخشوعَ لبادي  
فمعدرةً مني إليك بأن تُرى  
ولا أدراً الضراء عنك بحيلةٍ  
عليك، وإنني لم أحنك ودادي  
رهينةً أرواحٍ وصوب غوادي  
فما أنا منها قائلٌ لسعادٍ

(١) الحضرمي الملسن: النعل الذي فيه طول كهيئة اللسان.

(٢) الوجى: الحفا، قرع الفنيق: ضراب الفحل.

(٣) ينعمها: الينع جمع يانع وهو الثمر الناضج.

(٤) السابري: الثوب الرقيق النسيج.

(٥) الوساطة للجرجاني ص ٢٠٩، العمدة، لابن رشيق، ٢٢٨/١.

(٦) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٩٩/٢، والعمدة ٢٢٩/١.

(٧) ديوان أبي نواس ص ٤٧١ ط. الغزالي.

وإن كنت مهجور الفنا فيما رمت يد الدهر عن قوس المنون فؤادي  
وإن كنت قد بدلت بؤسى بنعمة فقد بدلت عيني قذى برقاد

فالتشاؤم واضح جداً في هذا المطلع خاصة إذا عرفنا إن مناسبة المدحة كانت بناء الفضل بن يحيى داراً جديدة كان أبو نواس في جملة الشعراء المهنيين له بسكناها. ومع أن «ابن رشيق» استقبح هذا المطلع وختم القصيدة أيضاً الذي قال فيه :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتُم بني برمك من راثحين وغادي  
إلا أنه استبعد أن يكون أبو نواس قصد التشاؤم (اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه وستراً على ما قصد إليه بذلك)<sup>(١)</sup> كذلك حاول «الامدي» أن يسوغ هذا المطلع الرديء :

(وقد اعتذر أبو نواس إلى الربيع بأنه لم يقدر على دفع ضرر البلى والدروس عنه، وإنه لا يدري ما يقول في ذلك لسعاد، فجاءنا بأبدة أخرى ظريفة عجيبة وقد رأيت غير واحد من الشيوخ يستحسنه لغرابة معناه)<sup>(٢)</sup>.

وعلى أية حال فلست أرى أن هذا المطلع بأسوأ كثيراً من مطلع مدحته في الأمين : يا دار ما فعلت بك الأيام . . . ، فالتقليد الأعمى هو الذي جعل أبا نواس يقف هذا الموقف المأساوي<sup>(٣)</sup> في كلتا المدحتين ولذلك تطير الفضل من مطلع مدحته وكلح وظهرت عليه الوجمة فقال مخاطباً أبا نواس نعت إلينا أنفسنا فلما انتهى إلى قوله : سلام على الدنيا إذا ما فقدتُم . . . (استحکم نظيره فيقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة)<sup>(٤)</sup>.

واستمراراً لمجازة تيار التقليد في كل مدحة نموذجية رحل أبو نواس إلى ممدوحه وهو إلى جواره رحيلاً نفسياً على ناقة سريعة تسابق الريح إن هي أعصفت حركت رأسها وجهدت قليلاً فلحقتها، فكم صخور اجتازتها عبر الصحراء وكم من واد متدفق تياره كالفرات قطعت حتى حطت إلى جنب الأمير، غير مكتثرة لما تلقى من الأذى والمشقة .

سأرحل من قود المهاري شيملةً مُسَخَّرَةً ما تُسْتَحَثُّ بحادي<sup>(٥)</sup>

(١) العمدة ١/٢٢٤ .

(٢) الموازنة بين الطائيين ١/٥٢٣ .

(٣) دراسات فنية في الأدب العربي، لعبد الكريم الباقى، ص ٢٢٩ .

(٤) عيار الشعر ص ١٢٣ .

(٥) الشملة : الناقة السريعة . المهاري : الإبل المهرية .

من الريح ما قامت، وإن هي أعصفت  
فكم حطمت من جندل بمفازة  
وما ذاك في جنب الأمير وزوره  
نَهوْزُ برأسِ كالعِلاَةِ وهادي<sup>(١)</sup>  
وخاضت كتيار الفُراتِ بوادِ  
ليعدَل من عنسي مَدَبٌ قُرَاد

أما المدح الموضوع الرئيسي للقصيدة فقد استغرق في الأربعة عشر بيتاً الباقية من مجموع أبيات القصيدة البالغ عددها ثلاثة وعشرين بيتاً. وأهم ما في هذا المديح أن أبا نواس زواج بين قمتي الفضائل العربية المتوارثة وهما فضيلتا الجود والشجاعة جامعاً إياهما في ممدوحه بصفتي يوم بؤس ويوم نعيم<sup>(٢)</sup>.

رأيت لفضلٍ في السماحة همّة  
فتى لا تلوكُ الخمرُ شحمة ماله  
ترى الناس أفواجاً إلى باب داره  
فيومٍ لالحاق الفقير بذي الغنى  
أظلت عطاياه نزاراً وأشرفت  
وكنا إذا ما الحائن الجَدغرة  
تردى له الفضل بن يحيى بن خالد  
أمّام خميسٍ أرجوانٍ كأنه  
أطالَت لعمري غيظُ كل جواد  
ولكن أيادٍ عودٌ وبواد<sup>(٣)</sup>  
كأنهم رجلاً دبسى وجراد<sup>(٤)</sup>  
ويومُ رقابٍ بوكرت لحصاد<sup>(٥)</sup>  
على حميرٍ في دارها ومُراد  
سنى برق غادٍ أو ضجيجُ رِعاد<sup>(٦)</sup>  
بماضي الظبي يزهاه طولُ نِجاد<sup>(٧)</sup>  
قميصٌ محوكٌ من قنأ وجياد<sup>(٨)</sup>

(١) نهوز: مبالغة من نهز رأسه إذا حركه. العلاة: السندان. الهادي: العنق.

(٢) لعل هذا المعنى مأخوذ من قول الحسين بن مطير في مدح المهدي:

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم  
(شعر الحسين بن مطير ص ٧٠)

(٣) اياد: نعم، عود وبوادي: أي تعود وتبدأ.

(٤) الرجل: الطائفة من الشيء. الدبي: أصغر النمل.

(٥) يوم للعطاء والجود ويوم للحرب والقتال وحصد الرقاب.

(٦) الحائن الجد: يقال حان الرجل إذا دنا موته والمصدر الحين، الجد: الحظ، السنى من الضياء مقصور قال تعالى: ﴿يكاد سنى بقره يذهب بالأبصار﴾.

(٧) ماضي الظبي: ظبة كل شيء، حده. يزهاه: يرفعه ويعليه. النجاد: حمائل السيف.

(٨) الخميس: الجيش. أرجوان: أحمر.

فما هو إلا الدهرُ يأتي بصرفه  
سلام على الدنيا إذا ما فُقدتم  
بفضل بني يحيى أشرفت سبل الهـ  
فدونكها يا فضلُ مني كريمةً  
خليلية في وزنها قُطربةً  
وما ضرها أن لا تُعدَّ لجرول  
على كل من يشقى به ويُعادي  
بني برمكٍ من رائجين وغاد  
سدى وآمن ربي خوفَ كلِّ بلادٍ  
ثنتُ لك عطفاً بعد عزِّ قيادٍ  
نظائرها عند الملوك عتادي<sup>(١)</sup>  
ولا المُزني كعبٍ ولا لزيادٍ

على أننا إذا أردنا أن نجمل القول في هذه المدحة العجيبة قلنا إنها تميزت بثلاث ميزات ظاهرة أولها جنوح أبي نواس فيها إلى تغليب جانب الخير والتقوى من مثل قوله :

فتي لا تلوكُ الخمرُ . . . ، لعله أخذه عن زهير في قوله : يمدح هرما :

أخو ثقةٍ لا تهلك الخمرُ ماله ولكنّه قد يهلك المالُ نائلةً<sup>(٢)</sup>

كما أغرق في الإشادة بجود ممدوحه كما بيّنا. ومثل قوله مضافاً عليه ملامح إسلامية من سماحة فافت سماحة كل جواد حتى أثارت وأطالت غيظه :

رأيتُ لفضلٍ في السماحة همّةً أطالتُ لعمري غيظَ كلِّ جوادٍ

وقوله أيضاً منوهاً بمآثر ممدوحه من قصده الطريق الصحيح في سلوكه وحسن سيرته في البلاد<sup>(٣)</sup> حتى آمن الخائف، لعل أبا نواس يشير هنا إلى ما فعله الفضل في تألفه أحد الثائرين من العلويين<sup>(٤)</sup> :

بفضل بن يحيى أشرفت سبلُ الهندي وآمنَ ربي خوفَ كلِّ بلادٍ

ثانيها : استحياء التاريخ الأدبي العربي القديم رغم تنديده المتصل بالقدماء والأزراء بالشعر القديم مما يعد اعترافاً ضمناً بسطوة الشعراء الجاهليين وإن يكن ظاهر القول يفيد العكس، وذلك حيث يقول متمدحاً بمدحته :

وما ضرها أن لا تُعدَّ لجرول ولا المزني كعبٍ ولا لزياد

فأبو نواس يعترف ابتداءً أن الشعراء الذين ذكرهم هم سلاطين الشعر في زمانهم والمثل الأعلى

(١) نظائرها: أمثالها. عتادي : عدتي . (٢) سرقات أبي نواس ص ٤٣ .

(٣) الوزراء الكتاب ص ١٩١ . (٤) المصدر السابق نفسه ص ١٨٩ .

الذي يقتدي به الشعراء فهو من حيث أراد التمدح بمأثور مدحه، يمتدح أولئك الشعراء بأنهم المقياس الذي يقاس به جودة الشعر من عدمها. !

وثالثها المبالغة في تصوير سطوة ومدوحه وجبروته وهي المبالغة التي كان يلجأ إليها في مدح الخلفاء خاصة، ملتزماً بنظرية العباسيين في الحكم، ولكن أبا نواس رأى في البرامكة أشباه خلفاء، فجاء مدحه للفضل بن يحيى، بأنه الدهر الذي يأتي على أعدائه ولا مناص من حكمه وقضائه:

فما هو إلا الدهرُ يأتي بِصَرْفِهِ      على كُلِّ من يَشْقَى بهِ وَيُعَادِي

وهكذا يتبين لنا أن مديح أبي نواس في البرامكة، على قلته إذا ما قيس بمدحهم في غيرهم، قد دل على عظم مكانة هؤلاء القوم في الدولة العباسية، وإنهم كانوا أنداداً للخلفاء، على أن الصورة لعلاقة الشاعر بهم لا يرسمها المديح وحده، وإنما هناك جملة من الفنون كالرثاء والهجاء وغيرهما، تتظاهر مع المديح على إعطائنا الصورة الحقيقية لتلك العلاقة، وما ذلك إلا لأن أبا نواس كأي شاعر عظيم، لا يفهم في جانب منه، فناً كان أو منحى حياتياً (حيوياً) إلا في ضوء مجمل حياته في جوانبها المختلفة. !

- آل الربيع :

إذا تركنا البرامكة إلى آل الربيع وجدنا صورة أخرى من مديح أبي نواس في الأعيان خالفت في غير قليل صورة أماديه في البرامكة. فعلى حين قلت أماديه في البرامكة وجدناها كثيرة جداً في آل الربيع حتى بلغت نحواً من ثمان وعشرين مدحة ما بين قصيدة ومقطوعة، تردت بين المديح المحض، من تمجيد وثناء وإشادة بالممدوحين، وبين الرجاء والاستعطاف والشكر والتشفيع والاسترحام أو الاعتذار، وهكذا كانت أماديه في آل الربيع من أغنى أماديه موضوعاً ومعنى، موضوعاً من حيث تعدد المواقف وتباين الأسباب والمناسبات التي قيلت فيها تلك الأماديع، ومعنى أو مضموناً من حيث أن الشاعر كان يبلغ بمدحته أو على الأصح ببعض أماديه، الغاية القصوى من المناسبة أو الموضوع الذي كان يتناوله بتلك الأماديع.

أما عن آل الربيع، فجدهم الأعلى هو أبو فروة واسمه كيسان مولى الحارث مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه<sup>(١)</sup> وكان الحارث حفاً للقبور بمكة فأبو فروة إذن عبد عبد عثمان وفي تلك يقول الشاعر:

وَإِنْ وَلَا كِيسَانَ لِلْحَارِثِ الَّذِي      وَلِي زَمناً حَفَرَ الْقُبُورِ يَشْرِبِ

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٩٤، ٣٧/٤.

وقد خرج أبو فروة هذا على عثمان يوم الدار<sup>(١)</sup>، وإنما قيل له أبو فروة، لأنه أدخل المدينة وعليه فروة فاشتراه عثمان رضي الله عنه وأعتقه وجعله يحضر القبور، وكان من سبي جبل الخليل<sup>(٢)</sup>، ثم نشأ أولاده في الكتابة في عهد بني أمية وكان ابنه عبدالله في صحبة عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير<sup>(٣)</sup>، كما كتب يونس بن محمد بن عبدالله بن أبي فروة للأمير العباسي عيسى بن موسى<sup>(٤)</sup>. وقيل إن يونس هذا كان شارياً من الخوارج فعلق أمة لقوم بالمدينة فوقع عليها فجاءت بالربيع<sup>(٥)</sup> واستعبد، ولهذا قيل إن الربيع لقيط<sup>(٦)</sup> أولم يكن له أب يعرف<sup>(٧)</sup>، حتى وجدنا جعفر بن يحيى يشتم الفضل بن الربيع بحضرة الرشيد متهماً إياه بأنه لقيط<sup>(٨)</sup>. وقد ابتاع زياد بن عبدالله الحارثي الربيع بن يونس وأهداه إلى خاله أبي العباس السفاح فخدمه ثم خدم أبا جعفر المنصور من بعده حتى أصبح وزيراً له بعد أبي أيوب المارياني كذلك تولى ابنه الفضل الحجابة<sup>(٩)</sup> كما وزر للمهدي أيضاً بعد أن صرف عنها أبا عبيد الله معاوية بن يسار سنة ١٦٣هـ. بتدبير من الربيع نفسه<sup>(١٠)</sup> وقد مات الربيع مسموماً<sup>(١١)</sup>. زمن الهادي سنة ١٦٩هـ<sup>(١٢)</sup> فاستخلف ابنه الفضل بن الربيع بعده على حجابته<sup>(١٣)</sup>. وفي زمن الرشيد لم يكن للفضل دور يذكر مع وجود البرامكة ولا في حياة الخيزران أم الرشيد حتى إذا ماتت سنة ١٧٣هـ<sup>(١٤)</sup> بادر الرشيد فأخذ الخاتم من جعفر بن يحيى وأعطاه للفضل بن الربيع كما أسند إليه سنة ١٧٩هـ حجابته وصرف عنها محمد بن خالد بن برمك<sup>(١٥)</sup> وكان بين الفضل بن الربيع والبرامكة أحن وشحناء فكانوا يناولون منه حتى كان من أسباب زوال نعمتهم تقصيرهم في حقه كما كان دائم السعي بهم لدى الرشيد بمساعدة كاتبهم إسماعيل

(١) الفخري في الأدب السلطانية ص ١٤٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٩.

(٣) الوزراء والكتاب ص ٤٤.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٣٠.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٢٥.

(٦) الفخري في الأدب السلطانية ص ١٤٢.

(٧) وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٦.

(٨) الوزراء والكتاب ص ٢١٦.

(٩) نفسه ص ١٢٥.

(١٠) المصدر السابق نفسه ص ١٦٧، والفخري في الأدب السلطانية ص ١٤٧.

(١١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٢٨.

(١٢) وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٩.

(١٣) تاريخ الطبري ٨/ ٢١٧.

(١٤) المصدر السابق نفسه ص ٢٣٨.

(١٥) المصدر السابق نفسه ٨/ ٢٦١، والوزراء والكتاب ص ٢٣٣.

بن صبيح<sup>(١)</sup> متودداً إليه بالبذل والهدايا بعد أن احترز البرامكة الأموال حتى كان الرشيد يخاطبه بلفظ يا عباسي<sup>(٢)</sup> وكان الفضل يروم التشبه بالبرامكة واللاحاق بهم من غير أن تكون له مقدرتهم. وفي أماديع أبي نواس في آل الربيع بعض الإشارات إلى ما كان بين آل الربيع والبرامكة من تناقض. وبعد نكبة البرامكة أصبح الفضل بن الربيع وزيراً للرشيد ثم للأمين بعد وفاة الرشيد، وكان وراء استفحال النزاع بين الأمين والمأمون<sup>(٣)</sup> وفي سنة ١٩٦هـ وبعد أن قويت شوكة المأمون استتر الفضل ثم ظهر مع ادعاء إبراهيم بن المهدي الخلافة، ثم عاد إلى الاستتار بعد أن اختل حال إبراهيم، ويقال إنه عاد إلى الظهور أيام المأمون<sup>(٤)</sup>.

هذا وتدلنا أماديع أبي نواس في آل الربيع على أن علاقته بهم قديمة ربما ترجع إلى الوقت الذي عرف فيه البرامكة أو بعد مجيئه إلى بغداد مباشرة لقوله في إحدى مدائحه في الفضل بن الربيع:

ولا تُفْسِدُوا بي وُدَّ عشرين حجةً      ولا تُفْسِدُوا ما كان منكم من الفضلِ  
فإذا ما تذكرنا إن سنة قدومه إلى بغداد كانت سنة ١٧٩هـ أو سنة ١٧٥هـ، رجح لدينا إنه قال هذه المدحة سنة ١٩٥هـ أو سنة ١٩٩هـ في أواخر خلافة الأمين أو أثناء صراعه المرير مع أخيه المأمون.

أما عن ممدوح أبي نواس من آل الربيع فهم:

عميد الأسرة، الفضل بن الربيع، الذي مدحه بنحو تسع عشرة مدحة، وابنه العباس بن الفضل بن الربيع وله فيه ست مدائح، ومدحتان أخريان في محمد بن الفضل بن الربيع، ثم جعفر بن الربيع، أخو الفضل بن الربيع، وله فيه مدحة واحدة، كما نجد للمسمى عبدالله بن نعيم - أخا كاتب الفضل بن الربيع - مدحة واحدة أيضاً.

ومن بين هذا الحشد الكبير من المدائح نجد خمساً تعتبر من المدائح الطويلة تتراوح أبياتها بين الاثنين والثلاثين والاثنتين والخمسين عدداً كما نجد أربع مدائح أخرى تجاوزت عدة كل منها الخمسة عشر بيتاً وأما بقية المدائح وعددها نحو عشرين مدحة فهي مقطوعات تنهى بعضها في

(١) وفيات الأعيان ٣٧/٤، والوزراء والكتّاب ص ٢٤٩.

(٢) الوزراء والكتّاب ص ٢٥١.

(٣) وفيات الأعيان ٣٩/٤، والوزراء والكتّاب ص ٢٩٣ والنجوم الزاهرة ١٨٢/٢.

(٤) النجوم الزاهرة ١٨٥/٢.

القصر إلى الثلاثة أبيات أو البيتين .

ومن الناحية الشكلية نجد أربع مدائح ذوات مقدمات ظللية<sup>(١)</sup> واثنان آخريان نستطيع أن نلحقهما بها لأن مقدمتيهما أشبهتا بصورة أو بأخرى المقدمات الظللية الأولى ارجوزته المشهورة في مدح الوزير الفضل بن الربيع<sup>(٢)</sup> والأخرى التي نص فيها على الظلل مزرباً به أو مستبعداً إياه من حياته وذلك حيث يقول :

يا ربُّعُ شُغْلِكَ أُنِّيْ عَنْكَ فِي شُغْلِ لا ناقتي فيك لو تَدْرِي ولا جَمَلِي<sup>(٣)</sup>  
كذلك هناك ثلاث مدائح مقدماتها غزلية<sup>(٤)</sup> . ومدحتان آخريان مقدماتهما خمريتان<sup>(٥)</sup> .

ومن مدائحه في آل الربيع مطولتان جعل مقدمة الأولى في الشباب والشيب وهي في مدح الفضل بن الربيع<sup>(٦)</sup> والثانية في مدح العباس بن الفضل بن الربيع استهلها بتساؤل غامض وحيرة وهي مقدمة غير مألوفة فيما عرفنا من مقدمات أبي نواس المدحية . يقول في مطلعها :

هل منك للمكتوم إظهار أم منك تغييب وإنكار<sup>(٧)</sup>

أما بقية مدائحه وعددها نحو ثنتي عشرة مدحة فالغالب عليها القصر، تتراوح عدة أبياتها بين البيتين والتسعة، كذلك يغلب اقتصارها على موضوع بعينه نابع من رحم المديح نفسه من اعتذار وتشفع وشكوى وندم واسترحام واستعطاف مما جعلها تختلف في غير قليل عن أمادحها التقليدية . وقد دلت هذه المقطوعات المدحية على الصلة الوثيقة التي كانت تربط أبا نواس بآل الربيع . ولعل بدايتها كانت، كما يدل مسلسل الأحداث مع سطوع نجم الفضل بن الربيع في سنة ١٧٩ للهجرة<sup>(٨)</sup> حين ولاة الرشيد الحجابة وصرف عنها محمد بن خالد البرمكي، مما أضفى على هذه المدحة الطابع السياسي . وفيها يقول :

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٤٧ - ٤٦٤ - ٤٦٨ - ٤٧٠ ، ط . الغزالي .

(٢) ديوان أبي نواس ١/ ١٦١ ط . فاجنر .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٤٩ ط . الغزالي .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٥٠ - ٤٥٦ - ٤٦٠ ط . الغزالي .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٥٥ - ٤٦٣ ط . الغزالي .

(٦) ديوان أبي نواس ص ٤٦٥ ط . الغزالي .

(٧) المصدر السابق نفسه ص ٤٢٩ برواية الصولي ط . بغداد .

(٨) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ .

قولا لهارون إمام الهدى  
 نصيحة الفضل، واشفاقه  
 بصادق الطاعة، ديانها  
 أنت على ما بك من قدرة  
 أوجده الله فما مثله  
 وليس لله بمستنكر  
 عند احتفال المجلس الحاشد<sup>(١)</sup>  
 أحلى له وجهك من حاسد  
 وواحد الغائب والشاهد  
 فلست مثل الفضل بالواجد  
 لطالب ذاك ولا ناشد  
 أن يجمع العالم في واحد

فأبو نواس إلى جانب تمجيده الفضل يحث الرشيد على استحبابه مثنياً على نصيحة الفضل وطاقته وإخلاصه وقد نالت هذه المقطوعة إعجاب النقاد من بينهم الجاحظ<sup>(٢)</sup> حتى إن أبا تمام لم يجد أحسن من قول أبي نواس :-

«وليس لله بمستنكر...» يتحلله في مخاطبة ابن أبي داؤد لما غضب عليه<sup>(٣)</sup>.

ثم نمضي بعد ذلك فإذا بأبي نواس يرتفع بالفضل بن الربيع إلى مساواته بالخليفة . كما نص على ذلك في مقطوعة أخرى :

لعمرك ما غاب الأمين محمد  
 ولولا مواريث الخلافة أنها  
 فإن تكن الأجسام فيها تباينت  
 أرى الفضل للذئب وللذئب جامعاً  
 عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضل<sup>(٤)</sup>  
 له دونه ما كان بينهما فضل  
 فقولهما قول وفعلهما فعل  
 كما السهم فيه الريش والفوق والنصل  
 الفرق الوحيد الذي ميزه أبو نواس بين الأمين والفضل هو ميراث الخلافة وأما قولهما وفعلهما فواحد.

ولعل المسوغ لأبي نواس في هذا التعظيم للفضل هو إن مناسبة هذه المقطوعة كانت على أثر وفاة الرشيد بطوس سنة ١٩٣ هجرية وقبول الفضل إلى بغداد مباشرة بالعسكر بجميع ما فيه<sup>(٥)</sup> (فوقع ذلك من الأمين أجمل موقع وتقدم بذلك عنده على كل أحد ففوض إليه أموره كلها وجعله

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٥٤ ط . الغزالي .

(٢) الحيوان ٦٣/٣ .

(٣) . كتاب الصناعتين ص ٢٢٠-٢٢١ ، وأخبار أبي تمام للصولي ص ١٤٦ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٤٤٩ ط . الغزالي . (٥) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٢٧٧ .

وزيره<sup>(٢)</sup> وأما أبو نواس (فما أصاب أحد من الشعراء وصفَ مكانه من الأمين كما أصاب أبو نواس في هذه الأبيات)<sup>(٣)</sup>.

ويعد أن توثقت علاقة أبي نواس بآل الربيع وجدناه يحور في الرواسم التقليدية للمديح من ذلك استبداله بالنسيب التقليدي نسبياً أو غزلاً مجونياً وذلك بالحديث الصريح ، من غير تورية ولا تعمية ، عن شذوذه ، فقد جعل المرأة التي شبب بها في إحدى مقطوعاته المدحية في الفضل بن الربيع تجمع بين حب النساء وحب الرجال وقد وكلت به رقيبين أحدهما يراه والآخر يسمعه :

يا رُعْ شُغْلِكَ إِنِّي عَنْكَ فِي شُغْلٍ      لا ناقتي فيكَ لو تُدْرِي ولا جَمَلِي<sup>(٣)</sup>  
علَى عَيْنٍ وَأُذُنٍ مِنْ مَذْكُورَةٍ      موصولة بهوى اللوطي والغزلِ  
كلاهما نحوها سامٍ بهمتهِ      على اختلافهما في موضع العملِ

على أن جملة مقطوعاته المدحية تدور حول موضوع سجنه من شكوى واعتذار واستعطاف وندم وتوبة وشكر ورجاء وتوسل وتشفع وتودد وطلب الغفران وامتنان وهي تدل على أمرين من حياة الشاعر أو من علاقته بممدوحيه أولهما إنه كان مروءاً بالحسب الطويل مرات عديدة سواء في عهد الرشيد أم في عهد الأمين بتهمة التناول على الدين والسلطان أو لهجائه أشرف زمانه وأعيانه ، الثاني تردده بين التحدي وقوة الشكيمة وبين الهوان والضعف هذا إلى كثرة شكواؤه ونفاد صبره فلا يكاد يثبت على حال ليتهاهي به الأمر إلى صور من الهزل والدعابة يضيفها على بعض مقطوعاته المدحية وهو يرجو أو يستعطف أو يتشفع من ذلك هذه المدحة العجبية التي وجه بها إلى الفضل بن الربيع من سجنه وفيها يرسم لنفسه صورة تثير الإشفاق والضحك . فهو يضحك ويبتسم ويهزل من أعماق سجنه ومن صميم معاناته :

أنتَ يا ابنَ الرَّبيعِ الزممتي النُّسبَ      كَ وَعودتنيهِ والخيرُ عادةً<sup>(٤)</sup>  
فأرعوى باطلاً وأقصرَ حَبْلِي      وتبدلتُ عَفَّةً وزهادةً  
لو تراني ذكرتَ للحسن البصَّ      ري في حسن سمته أو قتاده  
المسابيحُ في ذراعِي والمصححُ      ف في لَبِّي مكانَ القلادةِ  
وإذا شئتَ أن ترى طرفةً تعجَّ      بٌ منها مليحةً مستفادَةً

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١) ديوان أبي نواس ١/ ١٨٦ ، تحقيق فاجنر .

(٤) نفسه ص ٤٥٩ ط . الغزالي .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٤٩ ط . الغزالي .

فادعُ بي لاعدمتَ تقويمَ مثلي      وتفطَنُ لموضعِ السَّجَادَةِ  
 تر أثراً من الصلاة بوجهي      توقنُ النفس أنها من عبادةٍ  
 لو رآها بعضُ المُرائينَ يوماً      لا شترأها يُعدها للشَّهادةِ  
 ولقد طال ما شقيتُ ولكن      أدركتني على يدِكَ السَّعادةِ

فأبو نواس إذن قد تاب وأتاب ورجع عن غيه وها هو بعد المجون والعبث في صورة الناسك الزاهد الذي يباري أئمة الزهد والنسك فأثار العبادة قد انطبعت في جبينه والمساييح في ذراعه والمصحف في لبتة، ولعل الفضل قد استجاب كما تدل الأخبار لاستعطاف أبي نواس فأطلق سراحه أو مناه بذلك<sup>(١)</sup> وهناك خبر يرويه كل من «الطبري» و«ابن منظور» يذكران أبا نواس أرسل إلى الفضل جملة من الأبيات في صيغة رسالة دلت على إطلاقه من السجن<sup>(٢)</sup> وهذه الأبيات هي :

ما من يدٍ في الناس واحدةٍ      كيدِ أبو العباس مولاها<sup>(٣)</sup>  
 نام الثَّقاءُ على مضاجعهم      وسرى إلى نفسي فأحياها  
 قد كنتُ خِفْتُك ثم أمنتني      من أن أخافك خوفك الله  
 فعفوت عني عفو مُقتدرٍ      حلَّتْ له بقم فألغأها

وبعد الإفراج عن أبي نواس شاع في مدائحه شعور الولاء بل الرق للفضل بن الربيع معترفاً بفضله عليه كقوله :

أصبحتُ غيرَ مدافعٍ مولاكَا      والحظُّ لي في أن أكونَ كذاكَا<sup>(٤)</sup>  
 لله دري أيُّ رهنٍ منيةٍ      بالأمس كنتُ، وهالكٍ لولاكَا  
 أصبحتُ معتداً عليّ بنعمة      ما كان يُنعمها عليّ سواكَا

كذلك كان تعبيره عن سعادته الغامرة بنجاته من الهلاك واضحاً جداً حتى أصبح القليل المأمول كثيراً في المحصول عنده بعد أن أقال الفضل بن الربيع عشرته بعد أن لات حين مقيل من عشرات الزمان :

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٧٩ .

(٢) الطبري ٥٢٥/٨ ، أخبار أبي نواس ، لابن منظور ، ٢٢٤/١ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٥٩ ط . الغزالي .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٦٠ .

يا رَبِّةَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ وَالخَالِ فِي الْخَدِ الْأَسِيلِ (١)  
 جُودِي، وَلَوْ بَكْدَادٍ مَا تَسْخُوبُهُ نَفْسُ الْبَخِيلِ (٢)  
 بِقَلِيلٍ نَيْلِكَ إِنَّمَا يَنْمُو الْكَثِيرُ مِنَ الْقَلِيلِ  
 اللَّهُ خَلَصَنِي، وَرَأَى الْفَضْلُ مِنْ خَلَقِ الْكَبُولِ  
 وَأَقَالَ مِنْ عَنَتِ الزَّمَانِ، وَقَدْ يَثْسُتُ مِنَ الْمَقِيلِ

وفي مقطوعة أخرى كتب بها إلى بيته ساعة صدر الأمر بإطلاقه نثيين مدى ما كان يحسه أبو نواس من ضيق وعنت حتى إنه يشبهه الحبس بيوم الحشر، وأما السجن فهو القبر لذلك حق لابن العباس - الفضل بن الربيع - الشكر العظيم، لما أنعم به على أبي نواس من نعم عظيمة:

إِنِّي أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْقَبْرِ وَالنَّاسَ مُحْتَبِسُونَ لِلْحَشْرِ (٣)  
 لَوْلَا أَبُو الْعَبَّاسِ مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى وُلْدٍ، وَلَا وَفَّرِ  
 اللَّهُ الْبَسَنِي بِهِ نِعْمًا شَغَلَتْ جَسَامَتَهَا يَدِي شُكْرِي  
 لُقْنَتَهَا مِنْ مُفْهِمٍ، فَهِمٍ فَعَقَدْتُهَا بِأَنَامِلِ عَشْرِ

ومن الصور الهزلية المريرة التي طالعنا بها أبو نواس طلبه إلى ممدوحه الفضل بن الربيع أن يزيده قيوداً وأن يختار له من الرقباء أشدهم عتواً وظلماً على أن يعنى مسامعه من صوت آثم لسجان بغيض يسمى «سعيداً» أثقل بغضه قلب الشاعر بالحديد:

وُقِيَتْ بِي الرَّدَى زَدْنِي قِيودًا وَثُنَّ عَلَيَّ سَوْطاً أَوْ عُمُوداً (٤)  
 وَوَكَّلُ بِي، وَبِالْأَبْوَابِ دُونِي مِنَ الرِّقَبَاءِ شَيْطَاناً مَرِيداً  
 وَأَعْفِ مَسَامِعِي مِنْ صَوْتِ رَجَسٍ ثَقِيلٍ شَخْصُهُ يُدْعَى «سَعِيداً»  
 فَقَدْ تَرَكَ الْحَدِيدَ عَلَيَّ رِيشاً وَأَوْقَرَ بُغْضُهُ قَلْبِي حَدِيداً

وجميع هذه المقطوعات المدحية دلت على علاقة وثيقة ربطت بين الشاعر وممدوحه من آل الربيع وقد حاول أبو نواس أن يتحلل في تلك المقطوعات من القيود والتقاليد المتوارثة لقصيدة المديح، حتى كادت تكون تلك المقطوعات منظومة واحدة مختلفة الأوزان والروى نظراً لتقارب

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٦٠ ط. الغزالي.

(٢) كداد: ما بقي في القدر والمقصود الطفيف من الجود.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٦١ ط. الغزالي. (٤) نفسه ص ٤٥٤ ط. الغزالي.

معانيها وأفكارها ومناسبات قولها .

أما عن مدائحه الطويلة فقد اختلفت مقدماتها بين الطللية والغزلية والخمرية وغيرها هذا إلى إدخال أبي نواس لعناصر جديدة على تلك المقدمات من خمر ومجون ومذكر إلى جانب العناصر القديمة التقليدية من رحلة ووصف ناقة .

أما المديح فقد اختلف مقداره من مدحة إلى أخرى اختلافاً بيناً . ففي مدحة في الفضل بن الربيع بلغت عدتها ثلاثة عشر بيتاً<sup>(١)</sup> كان نصيب المديح منها بيتين فقط في حين جاءت المقدمة من أطلال ووصف راحلة وخمر في أحد عشر بيتاً .

ومدحة ثانية<sup>(٢)</sup> عدتها ثمانية عشر بيتاً كان نصيب المديح منها ستة أبيات فحسب .

وثالثة قالها في محمد بن الفضل بن الربيع عدتها ثمانية عشر بيتاً أيضاً جاء المديح في التسعة أبيات الأخيرة منها . . وهكذا دواليك وقد لاحظت إن الخمر كادت تكون القسم المشترك في كل مدائحه الطللية إلى جانب الرحلة أو وصف الناقة في حين خلت مقدمات مدائحه الغزلية من ذكر الخمر مع أن موضوع الخمر أدنى إلى الغزل بل إنه أولى به من المقدمات الطللية . وشيء آخر هو أن نصيب المديح في المدائح ذوات المقدمات الغزلية أوفر من نصيبه في المدائح ذوات المقدمات الطللية .

ولأبي نواس مدحتان بل مقطوعتان مقدمتاها خمريتان الأولى في مدح الفضل بن الربيع وعدتها عشرة أبيات كان نصيب المديح منها ستة أبيات<sup>(٣)</sup> والثانية في مدح العباس بن الفضل بن الربيع وتقع في ثمانية أبيات<sup>(٤)</sup> نصيب المديح منها ثلاثة أبيات فحسب .

كذلك هناك مدحتان تعتبران من أطول مدائحه تصدرت كلاً منهما مقدمة على خلاف ما عهدنا من مقدمات أبي نواس . عدة الأولى إثنان وثلاثون بيتاً وهي في الفضل بن الربيع ومطلعها:

وعظمتك واعظة القتير ونهتكت أبهة الكبير<sup>(٥)</sup>

وتقع مقدمتها في اثني عشر بيتاً موضوعها الشباب والشيب أعقبها بوصف الناقة والرحلة في ثلاثة أبيات أما المديح فيقع في السبعة عشر بيتاً الأخيرة .

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٤٧ ط . الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٦٤ . (٣) المصدر السابق نفسه ص ٤٥٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٦٣ . (٥) ديوان أبي نواس ص ٤٦٥ ط . الغزالي .

أما المدحة الطويلة الثانية فهي في العباس بن الفضل بن الربيع وتبلغ أبياتها خمسة وثلاثين بيتاً، ومطلعها:

أَمِنْكَ لِلْمَكْتُومِ اظْهَارُ أَمْ مِنْكَ تَغْيِيبٌ وَإِنْكَارُ<sup>(١)</sup>  
وقد جاءت مقدمة هذه المدحة غريبة ذهب فيها الشاعر مذاهب لا يكاد يلماها وحدة موضوعية كما عهدنا في مقدماته التقليدية، وعلى خلاف ما يذهب بعض المحدثين<sup>(٢)</sup> حتى إن ابن قتيبة يصرح بعدم معرفته لقول أبي نواس:

وَجِنَّةٌ لُقِبَتْ الْمُنْتَهَى ثُمَّ اسْمُهَا فِي الْعُجْمِ خُلَارُ<sup>(٣)</sup>  
ويقول أيضاً: (وهو يتلو بيتاً عمى فيه اسماً فقال: )

قولك عِلٌّ مِنْ لَعْلٍ وَمِنْ قَوْلِكَ يَا حَارِثُ يَا حَارِ<sup>(٤)</sup>  
فهو بحذفي ذا وترخيم ذا أَيْحُ الَّذِي تَلْدَعُهُ النَّارُ  
يريد راحة، ألا تراه إذا حذف أوله كما يحذف أول «لعل» فيقول «عل» وإذا رخم آخره حذف الهاء بقي منه أَيْحُ ثم قال: وجنة لقبت المنتهى<sup>(٥)</sup>.

أما عن المدحة التي اتخذناها نموذجاً لأماذج أبي نواس الربيعية فهي أرجوزته المشهورة في الفضل بن الربيع والمعروفة أيضاً بمنهوكة أبي نواس<sup>(٦)</sup>، والتي تعتبر من أصعب مدائح أبي نواس وأعسرهما بل هي من (أجزل شعره الجاد وأشدّه اعرابية واحفله بالغريب)<sup>(٧)</sup>. حتى إن طه حسين يصف ألفاظها بالطلسمات في غرابتها مثل غرابة ألفاظ رؤية والعجاج<sup>(٨)</sup>.

وقد لقيت هذه القصيدة تقدير الأدياء قديماً وحديثاً فابن جني الذي اعتمدنا على تفسيره لنص الأرجوزة يقول: (لقد انتهيت من تعريب هذه القصيدة بما قرب وكفى ولولا الإطالة لبسطتها أكثر من هذا).

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٤٤ ط. الغزالي وفي طبعة بغداد، هل منك...!

(٢) أبو نواس بين التخطي والالتزام لعلي شلق ص ٣٤١.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٨٠.

(٤) هذان البيتان غير موجودين في طبعة الغزالي من الديوان وهما موجودان في الطبقات الأخرى.

(٥) الشعر والشعراء ص ٧٨٠.

(٦) ديوان أبي نواس ١/١٦١ ط. فاجنر.

(٧) أرجوزة أبي نواس لابن جني ص ٤ من المقدمة.

(٨) حديث الأربعاء لطلح حسين ٢/١٢٤.

وما رأيت أحداً من أصحابنا نشط لتعريب شعر محدث على هذه الطريقة<sup>(١)</sup>.

وقد حاول أبو تمام من شدة استحسانه لهذه الأرجوزة تقليدها فلم يستطع<sup>(٢)</sup>.

كما إن «ابن القارح» صاحب الرسالة المشهورة إلى أبي العلاء باراها بأرجوزة طويلة وزناً وقافية مدح بها الحاكم الفاطمي وقد اعتبرها بروكلمان من أدل شعر أبي نوس على تقليده وذهابه مذاهب القدماء<sup>(٣)</sup>.

ومع أن أبا نواس لم يستهل هذه الأرجوزة بالوقوف على الأطلال ولكني رأيت إنها تدخل تحت الإطار العام لذلك المنهج التقليدي العتيق، إذ يكفينا أن نستبدل بلفظ «بلدة» التي وردت في البيت الأول منها:

وبلدةٍ فيها زوّدُ صغراءُ تُخَطِي في صَعْرٍ

لفظ «الدار» أو «الربع» أو «الطلل» حتى يكون لدينا مطلع طليلي على غرار ما ألفنا من المطالع الظللية النواسية لنجد أنفسنا من بعد ذلك في خضم رواسم الإطار العام للتقليد عند أبي نواس. إذ لا يلبث طويلاً حتى يصف لنا البلدة التي استهل بها أرجوزته بالأعوجاج في طرفها فلا يسار فيها إلا في أعوجاج أي أن أحداً لا يقطعها إلا أن يسلك جانباً منها. وهي بلدة ثراها جاف لا نبت فيها فإذا اقتفى الذئب أثر الراحلين كان نصيبه ما تطرحه الرواحل المنهكة من الأجنة التي لم تكتس بعد بريشها ولا تستطيع حراكاً خلا أعينها التي تطرف:

مرت، إذا الذئبُ اقتفَرُ بها من القوم الأثر<sup>(٤)</sup>  
كان له من الجُرُزُ كُلُّ جنين: ما اشتكر<sup>(٥)</sup>  
ولا تعلّاه شعر ميثُ النساء، حيُّ الشَّفَر<sup>(٦)</sup>

واستكمالاً للعناصر التقليدية يعمد أبو نواس إلى عرض جملة من المشاهد الصحراوية المثيرة وكأنه أحد الشعراء الإسلاميين أو الجاهليين من رحلة على جمل قوي ضامر حتى بدا كالغليظ من

(١) تفسير الأرجوزة ص ١٩٨ تحقيق محمد بهجت الأثري.

(٢) أخبار أبي تمام للصولي ص ٢٤٦.

(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٨/٢.

(٤) الممرت: التي لا تنبت شيئاً. اقتفَر: اقتفى وتبع الأثر.

(٥) الجزر: جمع جزرة وهي الشاة المذبوحة. اشتكر: أخرج الشكير وهو الصغير من الريش أو الوبر.

(٦) النساء: عرق مستبطن الفخذين إلى الساق. الشفر: أصل منبت الشعر في الجفن.

حمر الوحش وهو يسوق أمامه اتنه التي وشم أعناقها بعضاضه وهي مسيرة بأمره في رعيها وسقيها فبدت للناظر إليها يركب مجد ينظرون إلى البرق، فإذا ما حميت الشمس وقصر الظل قصدن الماء الكثير من ناحية هجر، وكان هناك صائد يرقب صيده وييده قوسه وقد شدت بوتر محكم النصل لا عوج في فتله كأنه في استوائه حلقوم الطائر الصغير المستوى العنق فإذا ما قصد إلى رمى تلك الاتن جارت وتفرقت عن رميته:

عسفتُها على خَطَرٍ      وَغَرِرَ مِنْ الغَرَرِ<sup>(١)</sup>  
 بيازلٍ حينَ فَطَرُ      تهزه جِنُّ الأَشْرِ<sup>(٢)</sup>  
 لا مُتَشَكِّ من سَدَرٍ      ولا قَريبٍ من خَوَرٍ<sup>(٣)</sup>  
 كأنه بعد الضُمُر      وبعد ما جال الضَفُرُ<sup>(٤)</sup>  
 وانمح نِيٌّ فحسر      جَابُ رِباعٍ المَتَغَرِ<sup>(٥)</sup>  
 يحدو بِحُقبٍ كالأَكْرُ      تُرى بِأَثباجِ القَصَرِ<sup>(٦)</sup>  
 منهن توشيمَ الجَدَرِ      رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَرِ<sup>(٧)</sup>  
 شهرى ربيعٍ وصَفَرُ      حتى إذا الفحل جَفَرُ<sup>(٨)</sup>  
 واشبه السَفَى الأبر      ونشْ أذخارَ النُقَرِ<sup>(٩)</sup>  
 قلن له: ما تأمر      وهن، إذ قلن: أَشَرُ<sup>(١٠)</sup>

(١) عسفتها: أي ركبها على غير تدبير وبغير قصد. الغرر: الخطر.

(٢) البازل: من الإبل كالقارح من الخيل. فطر: ظهر نابه. الأشر: الشرة والبطر.

(٣) السدر: الدوار في الرأس.

(٤) الضمر: الهزال. الضفر: جمع ضفيرة وهي من جبال الرحل.

(٥) مح وانمح وامح: ذهب. الني: الشحم. الجاب الحمار الغليظ. رباع: أي قد ألقى رباعيته. المتغر: نبات الأسنان بعد سقوطها.

(٦) يحدو: يسوق. الحقب: جمع حقباء وهي الأتان التي على حقوبها بياض. كالأكر: شبه الاتن في تدويرها وامتلائها بالكرات الأثباج: جمع ثبج وسط الشيء. القصر: اسم جمع لقصرة وهي أصل العنز.

(٧) توشيم: من الرشم، يعني أثار عض الفحل لها، الجدر: كل يتر وجرح ومنه الجدرى. الأبيكار: الأوائل.

(٨) جفر: أي انقطع عن الضراب لشدة الحر.

(٩) السفي: شوك البهيمى، من شدة الحر قد أشبه السفي الأبر في الحدة والقوة. نش: جف، النقرة: انحفرة.

(١٠) أي انتظرن أمره وما يجسمهن من طلب الماء.

غَيْرُ عَوَاصٍ مَا أَمْرٌ كَأَنَّهَا لَمَنْ نَظَرٌ<sup>(١)</sup>  
 رَكِبَ يَشِيمُونَ مَطَرٌ حَتَّى إِذَا الظِّلُّ قَصُرَ<sup>(٢)</sup>  
 يَمَمَّنْ مِنْ جَنْبِي «هَجْر» أَخْضَرَ طَمَامَ الْعَكْرِ<sup>(٣)</sup>  
 وَبَيْنَ أَحْقَاقِ الْقُتْرِ سَارٍ، وَلَيْسَ لِسَمَرٍ<sup>(٤)</sup>  
 وَلَا تِلَاوَاتِ السُّورِ يَمْسَحُ مِرْنَانًا يَسْرُ<sup>(٥)</sup>  
 زُمَّتْ بِمَشْزُورِ الْمِرْرِ لَأَمْ كَحَلْقُومِ النُّغْرِ<sup>(٦)</sup>  
 حَتَّى إِذَا اصْطَفَى السُّطْرُ أَهْدَى لَهَا، لَوْ لَمْ تَجُرَّ<sup>(٧)</sup>

أما المديح في هذه الأرجوزة، فقد مضى به أبو نواس في نفس الاتجاه التقليدي لمقدماتها مدفوعاً بقوة تيار الغريب، وها هو يقصد ممدوحه على نياق غائرات العيون، يجاذبن أزمتهن من نشاطها في سيرها ضوامر مما ألم بها من الجوع والهزال وعنت المسير، ويخاطبه: قاصدة إياك لم يحبسها عنك طيرة تعرض ثقة بجودك فإنني أدعوك يا فضل للقوم البُطر الذين أبطرتهم النعمة فلم يشكروها فاستبد بهم الطغيان، حتى عدم الناس النجاة من السنة الصعبة والأمان من الخوف، وفيما هم فيه، نهضت ففرجت عنهم كرب الشدائد فأنت في الجلالة وشريف الفعل كالشمس إلا إنك في شخص بشر:

فتلك عنسي لم تذر<sup>(٨)</sup>

شُبَّهَا إِذَا الْأَلُّ مَهْرٌ إِلَيْكَ كَلَّفْنَا السَّفَرَ<sup>(٩)</sup>

- 
- (١) غير عواص، أي سامعات مطبوعات.
- (٢) يشيمون: يبصرون.
- (٣) أخضر: يريد ماء أخضر. طمام: من طم الشيء إذا كثر حتى علا وغلب. العكر: ما يرتفع على الماء من البحر والریش والحطام.
- (٤) أحقاق: جوانب ونواحي. الفترة: هي حفرة الصائد التي يتوارى فيها ليرمي الصيد.
- (٥) المرنان: القوس التي ترن. تصوت إذا رمى عنها.
- (٦) زمت: شدت. مشزور المرر: أي بوتير مفتول شزراً، المرر: جمع مرة وهي القوة من الوتر، لام: ملثتم أملس، النُغر: طائر صغير مستوى خلفة العنق.
- (٧) يريد اصطفت الحمر لشرب الماء كالسطر. لم تجر: من جار، كل ما مال فقد جار.
- (٨) العنس: الناقة الشديدة.
- (٩) الأل: السراب. مهر: اشتد وقوي.

خصوصاً بُجَادِبِنِ الْجُرُرِ      قد انطوت منها السُّررُ<sup>(١)</sup>  
 طِيَّ الْقَرَارِيِّ الْحَبَرِ      لم يتقَعدها الطَّيْرُ<sup>(٢)</sup>  
 ولا السَّنِيحُ الْمَزْدَجَرُ      يا فضل للقومِ البُطْرُ<sup>(٣)</sup>  
 إذ ليسَ في الناسِ عَصْرٌ      ولا من الخوفِ وَزْرٌ<sup>(٤)</sup>  
 ونزلت إحدَى الكُوبَرِ      وقيل: صَمَاءُ الْغَيْرِ<sup>(٥)</sup>  
 فالناسُ أبناءُ الحَذَرِ      فرُجَّتْ هَاتِيكَ الْغُمَرُ<sup>(٦)</sup>  
 عنا، وقد صابَتْ بُقُرُ      كالشمسِ في شخصِ بشرٍ<sup>(٧)</sup>

وهنا يشير أبو نواس إلى حادثة تاريخية مشهورة أضفت على مدحته ضرباً من المديح السياسي، تلك هي ما قام به الربيع بن يونس عند وفاة المنصور بمكة سنة ١٥٨هـ من أخذه للبيعة للمهدي على الناس<sup>(٨)</sup> وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حي، وأدخل إليه قوماً فرأوه من بعيد وقد جلله بثوب، وأقعد إلى جنبه من يحرك يده وكأنه يوميء بها إليهم، فلم يشكوا في حياته. فما خالف أحد، فشكره المهدي لذلك فالربيع بأخذه البيعة للمهدي عز أن يجاربه أحد لما في ذلك من المخاطرة. فقد فرج عن مضر ظلمتها والقوم جلوس في الرواق للبيعة، والخوف قد شمل الناس جميعاً حتى إذا رأى الأمر قد اشتد نهض كالسيف العضب القاطع، وهكذا أنت يا فضل تقتفي أثر

(١) الخوص: جمع خوصاء وهي الغائرة العين. الجرر: جمع جرير وهو حبل مضمور من آدم. السرر: جمع السرة وهي الوقية التي في وسط البطن.

(٢) القراري: لأنه مستقر في الحضر. الحبر: الحبرة ضروب من برود اليمن وأيضاً التحبير التحسين. الطيرة: من التطير أي التشاؤم.

(٣) السنيح: هو السانح وهو يجيء من مياسرك فيوليك ميامنه وهذا محبوب. المزدجر: من الزجر. البطر: جمع بطير أو بطور.

(٤) العصر: المنجاة ومنه قوله تعالى: (وفيه تعصرون أي تنجون). وزر: ملجأ، قال تعالى: (كلا لا وزر)

(٥) الكبر: جمع الكبرى يريد الشدة والسنة الصعبة. صماء الغير: شديدة. ومنه رمح أصم أي شديد. ويروى الغير: وهي الحوادث وما يتغير من الخطوب.

(٦) الغمر: جمع غمرة وهي الشدة.

(٧) القر: القرار. والعرب تضرب هذا القول مثلاً إذا نزلت بهم شدة. ومعناه نزل الأمر في قراره. فلا يستطيع له تحويل.

(٨) زهر الأداب ص ٥٤٢.

أبيك في مآثره وأمجاده بالاعتدال والنهوض بالمهام الصعبة . . . ! فأين هم الحاقدون بعد غلبتهم وقد تجرعوا كأس المر يتسامون إلى مقامك السني وأنت مثل القمر في حسنه وارتفاع محله، فبينما أنت واضح جلي لا تساطر أعداءك إذا هم يطلبون غراتك من تحت تحت خوفاً منك فلتشكر الله والحرمنُ شكر. . . !

والذي يدولي أن أبانواس قال هذه القصيدة مشيراً بها إلى البرامكة، أعداء ممدوحه الالداء، أو إنه قالها في مستهل خلافة الأمين من قبل أن تتضح له النهاية الحزينة .

أغلى مُجاريك الخطرُ أبوك جلى عن مُصر<sup>(١)</sup>  
يوم الرواقِ المحتضرِ والخوفُ يقري ويدر<sup>(٢)</sup>  
لما رأى الأمر أقمطر<sup>(٣)</sup> قام كريماً فانصر<sup>(٤)</sup>  
كهزة العضب الذكرُ ما مس من شيء هبر<sup>(٥)</sup>  
وأنت تقتاف الأثر من ذي حجولٍ وغرز<sup>(٦)</sup>  
معيدٌ وردٌ وصدور وإن علا الأمر اقتدر<sup>(٧)</sup>  
فأين أصحاب الغمر إذ شربوا كأس المَقِر<sup>(٨)</sup>  
وقُسروا فيمن قُسر هيهات لا يخفى القمر<sup>(٩)</sup>  
أصحرت إذ دبوا الخمرُ شكراً، وحر من شكر<sup>(٩)</sup>

ويتابع أبو نواس الدعاء لممدوحه بالخير الوافر والنصر على الأعداء والظفر بهم مخاطباً إياه، فأنت إن ألمت بنا ضائقة وتجهم لنا الزمان وكشّر عن أنيابه، كنت لنا كما يكون الغيث لذوي

(١) الخطر: المخاطرة. أغلى: بالغ.

(٢) المحتضر: المفعل من الحضور. يقري ويدر: مبالغة في شدة الأمر.

(٣) اقمطر: اشتد.

(٤) العضب: السيف القاطع. هبر: قطع ومنه قيل الهبرة.

(٥) تقتاف: تتبع أثر أبيك. ذي حجول: يريد أباه الربيع.

(٦) معيد ورد: أي يقتدر على الأمر وإن كان عالياً صعباً.

(٧) الغمر: جمع غمر وهو الحقد. المقر: الصبر وقيل هو السم وقيل المر.

(٨) قسروا: غلبوا.

(٩) أصحرت: أي ظهرت ووضحت ولم تساطر أعداءك. دبوا الخمر: يطلبون غراتك.

الحاجات، فيالك سمحاً مياسراً إلا أن تسام الضيم عندئذ تجد في التنكيل بأعدائك حتى يخروا على وجوههم لما لا قوا على يدي شديد لو جذب جبلاً إليه لانعطف نحوه، شديد قاهر لأعدائه إذا زلوا ظل ثابتاً رابط الجأش، فإما خافوا وأحجموا عند اللقاء تقدم غير هيب فاغراً فاه هادراً مفججاً بين رجله كالفحل.

«أنت إذا لقيت أعداءك من العزة والاستطالة عليهم بمنزلة هذا البعير الذي قد هاج فلا يقوم

له شيء:

والله يعطيك الشَّبْرُ وفي أعاديك الظَّفَرُ<sup>(١)</sup>  
 والله من شاء نصر وأنت.. إن خفنا الحَصْرُ<sup>(٢)</sup>  
 وهرَّ دهرٌ وكشَّرُ عن نأجذيه.. ويسرُ<sup>(٣)</sup>  
 أغنيت ما أغنى المطرُ وفيك أخلاق اليسرُ<sup>(٤)</sup>  
 فإن أبواً إلا العَسْرُ أمررت جبلاً فاستمرُ<sup>(٥)</sup>  
 حتى ترى تلك الزمْرُ تهوي لاذقان الثغرُ<sup>(٦)</sup>  
 من جذب ألوى. لونتُرُ إليه طوداً، لا نأطرُ<sup>(٧)</sup>  
 صعبُ إذا لاقى أبرُ وإن هفا القومُ وقَرُ<sup>(٨)</sup>  
 أو زهبوا الأمر جسرُ ثم تسامى، ففغرُ  
 عن شقشقي، ثم هدُرُ ثم تفاجى، فخطرُ<sup>(٩)</sup>  
 بذى سبيبٍ وعُدُرُ يمصعُ أعراف الويرُ<sup>(١٠)</sup>

هذا وقد جارينا ابن جني في أفراد ما تبقى من الأبيات القليلة من هذه الملحمة الغريبة،

(١) الشبر: النماء والكثرة. (٢) الحصر: ضيق الصدر بالأمر لشده.

(٣) شبه تجهم الزمان وقطوبه بالكلب إذا هر. كشر: أبدى أنيابه. بسر: تجهم.

(٤) اليسر: اللين والانتقياد.

(٥) امررت: فتلته فتلاً محكماً.

(٦) الثغر: جذب بشدة. ألوى: شديد. أناطر: من أطرته أي عطفته.

(٨) أبر: أي زاد على أعدائه وقهرهم.

(٩) الشقشقة: ما يظهر من فم البعير خارجاً من حلقة عند الهدير كأنه شكوة، تفاجي: من الفجوة وهي المتسع بين

الشيئين أي فجح برجليه للهاج.

(١٠) سبيب: شعر الذنب والعرف، العدر: الخصل من الشعر. يمصع: يحك ذنبه. أعراف الوير: أطرافه وأرائله.

فجعلناها في قطعة منفصلة وكأنه يرى، إن هذه الأبيات تشكل وحدة بذاتها، مع إني لا أرى ذلك فالأبيات القليلة التالية لا تزال تحمل نفس الروح، رغم ما فيها من السهولة. المتميزة. يقول «ابن جني»<sup>(١)</sup>: (ثم خرج من هذه الألفاظ الجزلة، وشاذ اللغة، إلى أعذب لفظ وأرقه، ليعلم بذلك اقتداره على الأمرين جميعاً، أو ليدل على حسن تصرفه في الشعر وافتنانه وطبعه فقال يخاطبه) وفي هذا الخطاب يستسمح أبو نواس ممدوحه في أن ينوب عنه ويخلفه بالجميل فإن رأى خيراً نشر أي إن أحسن إليه شكره وإن قصر في أمره عذر، فليس له عنده إلا العذر:

هَلْ لَكَ، وَالْهَلْ خَيْرٌ فِيمَنْ إِذَا غَبَتْ حَضْرُ  
أَوْ نَالَكَ الْقَوْمُ ثَأْرًا وَإِنْ رَأَى خَيْرًا نَشْرًا  
(أَوْ كَانَ تَقْصِيرٌ عَدْرًا)

واضح إذن إن هذه الارجوزة (المنهوكة) مثلت قمة الغرابة والإعسار في مديح أبي نواس بخلاف جملة من مدائحه التي جنح في مقدماتها أبو نواس إلى السهولة والعذوبة في أسلوبه متحرراً من رواسم التقليد العتيدة. من ذلك مدحته في الفضل بن الربيع التي يقول في مستهلها:

قَدْ عَذَّبَ الْحَبُّ هَذَا الْقَلْبَ مَا صَلَّحَا      فَلَا تَعْدَنْ ذَنْبًا أَنْ يُقَالَ صَحَابَا  
أَبْقَيْتُ فِيَّ لْتَقْوَى اللَّهِ بَاقِيَةً      وَلَمْ أَكُنْ كَحَرِيصٍ لَمْ يَدْعُ مَرَحَا  
وأيضاً المقطوعة التي يقول في مطلعها:

يَا رَبَّةَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ      وَالْخَالِ فِي الْخَدِ الْأَسِيلِ  
وهي المقطوعة التي سبقت الإشارة إليها والتي قلنا إنه نظمها بعد إطلاق سراحه من السجن تعبيراً عن سعادته الغامرة، وهكذا كانت هذه المقطوعة في بساطتها وصدقها وقوة تأثيرها أدنى إلى شعره الشخصي منها إلى شعره الرسمي التقليدي.

يَا رَبَّةَ الْوَجْهِ أَفِيهِ طَاقَةٌ عَلَيَّ مُوَاصِلَةٌ

الشرب فيهم يرد الكأس عنه إذا قدمت إليه بعينين فاترتي اللاحاظ، ولكن إلحاح الصحب عليه جعله يراجع نفسه ليشارك الندمان فيما هم فيه من أسباب المسرة التي لا تتم إل بتلك المشاركة، لذلك فما أن أقبل عليه الساقى وهو يمس بقده الممشوق ويلحظه اراه الرسمي التقليدي.

ومن تلك المدائح أيضاً المقطوعة التالية:

(١) تفسير ارجوزة أبي نواس ص ١٨٩. (٢) الديوان ص ٤٥٦ ط. الغزالي.

ومن تلك المدائح أيضاً المقطوعة التالية:

أما وصدودٍ مخمورٍ بعينه عن الكاس<sup>(١)</sup>  
فلما خشي الالحاح من صحبٍ وجلاسٍ  
وألا يقبلوا عذراً تحساها مع الحاسي  
بكفي فاتر اللحظٍ رخيم الدل، مياسٍ  
لنا منه مواعيدٌ بعينه، وبالرأس  
لئن سُميت عباساً فما أنت بعباسٍ  
لدى الجود، ولكنك كعباسٍ لدى الباسٍ  
وبالفضل لك الفضلُ أبا الفضل على الناس

في هذه المقطوعة العجيبة غلب أبو نواس الخمر والغزل على المدح؛ الموضوع الرئيسي فيها، ليجعله في المقام الثاني وذلك حين قصره على ثلاثة أبيات وجعل المقدمة في خمسة حتى كادت تشكل خمرة غزلية قصيرة مضمناً إياها كل ما يملك من رشاقة لفظ وعذوبة جرس وسلاسة أسلوب. فهناك نديم مخمور قد أثقل جفنه الخمار فلم تعد فيه طاقة على مواصلة الشرب فيهم يرد الكأس عنه إذا قدمت إليه بعينين فاترتي الالحاظ، ولكن إلحاح الصحب عليه جعله يراجع نفسه ليشارك الندمان فيما هم فيه من أسباب المسرة التي لا تتم إلا بتلك المشاركة، لذلك فما أن أقبل عليه الساقى وهو يمس بقده الممشوق وبلحظه الفاتر ولفظه الأنيق الرخيم حتى بادر إلى شربها مع الآخرين.

أما المديح الذي قصره أبو نواس على ثلاثة أبيات فقد عمد فيه إلى نوع من التصنيع البديعي مستغلاً اسم ممدوحه «عباس» فهو عباس في الشدة لا في الجود، أو في الضراء لا في السراء. ولما كان اسم أبيه هو الفضل، وكنيته أيضاً أبو الفضل ضاماً إليهما معنى الفضل وهو الجود، فهكذا جاء خطابه لممدوحه بتفضيله على الناس...!

- الخصيب:

الخصيب هو أبو نصر بن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بمصر<sup>(٢)</sup> ونسبته العجمي ثم المذارى وهو دهقان من أهل المذار شريف الالباء، كان رئيساً في أرضه فانتقل إلى بغداد وصار

(٢) وفیات الأعيان ٦١/٢، ١٣٥.

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٦٣ ط. الغزالي.

كاتب مهرويه الرازي ثم انتقل إلى الإمارة<sup>(١)</sup>. وقد تولى خراج مصر بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ<sup>(٢)</sup>. وإلى الخصب تنسب منية بني خصيب المعروفة اليوم في مصر بالمنيا<sup>(٣)</sup> أما عن سبب رحيل أبي نواس إلى مصر فقد قيل إنه قصد الخصب هرباً من بطش الرشيد بعد نكبة البرامكة<sup>(٤)</sup> أو إن الخصب هو الذي استدعاه<sup>(٥)</sup>، وقيل أيضاً إنه شخص إلى مصر لشخص سليمان وهرون ابني أبي سهل بن نيسخت ولمحبته عشرتهما وكونه معهما فعمل في طريقه قصيدته المشهورة: أجارة بيتينا . . !<sup>(٦)</sup>.

وقد يكون لكون الخصب فارسياً من الأسباب التي شجعت أبا نواس على زيارته.

هذا وتطالعنا حول هذه الزيارة منذ انعقاد النية عليها إلى دخول أبي نواس على الخصب جملة من الطرائف نشير إليها باختصار، منها إن جماعة من الشعراء كانوا قد هموا بالخروج إلى الخصب فما أن علموا بخروج أبي نواس حتى اجتمعوا بالرقعة وقرروا الرجوع، لكن أبا نواس طمأنهم على أن لا يبدأ إلا بهم فشكروه ومضوا في طريقهم حتى إذا اتصل خبر أبي نواس بالخصب وجلس له جلوساً عاماً ودخل إليه الشعراء في دهليزه نهض أبو نواس وأنشد:

يا أيُّهَذَا الْمَلِكُ الْمَوْءَلُ      قَدْ اسْتَزَرْتُ عَصَبَةً فَأَقْبَلُوا<sup>(٧)</sup>  
وعصبة لم تستزرها طفلاً      رجوك في تظليلهم وأملوا  
وللرجاء حرمة لا تُجْهَلُ      فافعل كما كنتَ قديماً تفعلُ

وقيل إن أبا نواس لما قدم على الخصب كان عنده جماعة من الشعراء فأبى أن ينشد إلا بعد أن ينشده من هو أكبر منه سناً حتى إذا جاء دوره في الإنشاد قال مخاطباً الخصب: (أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون . . )<sup>(٨)</sup>.

وقيل أيضاً أن أبا نواس (خرج إلى مصر في زي الشطار وتقطيعهم بطرة قد صفاها وكمين

(١) ديوان أبي نواس ٢١٥/١، ط. فاجز.

(٢) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٢٥٤.

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢٣٤/١ - الهامش.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (أبو نواس).

(٥) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٢٥٥.

(٦) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هانئ لمؤلف مجهول (مخطوط): ورقة: ٢٢.

(٧) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٢٥٥. (٨) المصدر السابق نفسه ص ٢٥٦.

واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق . . . فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به ولم يستنشه فانصرف مهموماً<sup>(١)</sup> .

كذلك تنقل الأخبار إنه اجتاز بحمص وأن ديك الجن الحمصي توارى عن طريقه<sup>(٢)</sup> ، وعن الشاعر النضر بن أمية الحمصي يذكر ابن منظور إن الناس كانوا في انتظار أبي نواس وإن النضر ذهب إلى الخان الذي نزل فيه أبو نواس بحمص ومعه ابن له حسن الوجه فجمشه أبو نواس . أما بخصوص خط سير رحلته فقد تكفلت مدحته الرائية الكبرى بتتبع المراحل والبلاد التي مرَّ بها وهي لهذا السبب تعتبر من الأدب الجغرافي النادر القليل .

أما مدائحه في الخصيب فقد بلغ عددها ستاً منها مقطوعتان تقع أحدهما في ثلاثة أبيات يخاطب المدعوة «لباب» على أنها ابنته والأخرى وتقع في أربعة أبيات يندد فيها بأهل مصر. بمناسبة تظاهرة ضد السلطة زعمت بعض الروايات أن أبا نواس أحمدها بخطبة منه . وليس في هاتين المقطوعتين من المديح ما يوجب التوقف عندهما لذلك صرفنا عنهما النظر وتبقى له أربع مدائح من القصائد يقف على رأسها قصيدته المشهورة .

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير  
أما القصائد الثلاث الأخرى فلعلنا نستطيع أن نقدر لكل واحدة المناسبة التي قيلت فيها . وقد يكون من الأفضل أن أبادر إلى القول إن مدحته ولنسمها الرائية الصغرى :

لم تدر جارتنا ولا تدري أن الملامة ربما تغري<sup>(٣)</sup>

هي من أوائل إن لم تكن أول ما قاله أبو نواس في الخصيب لأسباب منها قصر مقدمتها قصراً واضحاً إذ لم تتجاوز البيتين ليعقبهما المديح في عشرة أبيات وهذه نسبة كبيرة جداً إذا قيست بنسبة أبيات المديح إلى غيرها في مدائحه الأخرى :

هَبَّتْ تَلَوْمُكَ غَيْرَ عَاذِرَةٍ      وَلَقَدْ بَدَأَ لَكَ أَوْسَعُ الْعُذْرِ  
وَاسْتَبَعْدَتْ مِصْرًا وَمَا بَعُدَتْ      أَرْضٌ يَحُلُّ بِهَا أَبُو نُضْرٍ  
وَلَقَدْ وَصَلْتُ بِكَ الرَّجَاءَ وَلِي      مَنُودِحَةٌ لَوْ شِئْتُ عَنْ مُضْرٍ  
فِي مَا تَنَافَسَهُ الْمَلُوكُ مِنَ الـ      حُورِ الْحَسَانِ وَعَاتِقِ الْخَمْرِ

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢٣٥/١ .

(٢) وفيات الأعيان ٣/١٨٥ . (٣) ديوان أبي نواس ص ٤٨٤ ط . الغزالي .

ومحدّثٍ كُثرت طرائفُه  
 إني لأملُ يا خصبُ على  
 وكذلك نِعَمَ السوقِ أنتَ لمن  
 أنت المبرِّزُ يومَ سَبَقهمُ  
 علم الخليفةُ أن نعمته  
 كافٍ إذا عصبَ الأمورَ به  
 فانقَع بسبيك غلَّةَ نزحتُ  
 عانٍ لديّ بقلَّةِ الوفْرِ  
 يدك . اليسارةَ آخرَ الدَّهرِ  
 كسدتَ عليه تجارةُ الشُّعْرِ  
 إن الجِوَادَ بعُرفه يجري  
 حلَّت بساحةِ طيبِ النَّشْرِ  
 ماضي العزيمةِ جامعُ الأمرِ  
 بي عن بلادِي وارتهنُ شُكري

في هذه المدحة نستطيع أن نتبين أن الحافظ الأول لأبي نواس على زيارته مصر كانت له الغلبة على معاني القصيدة سواء أكان هذا الحافظ طلباً للنوال أم هرباً من بطش الرشيد بعد نكبة البرامكة، وهكذا ظل أبو نواس يلح على جود ممدوحه عارضاً إياه في العديد من التصاور فجود الخصب يدني كل أرض بعيدة وليس للشاعر عن مصر حيث يقيم الخصب متسع من الأرض، رغم تنافس الأشراف والأعيان في بذل الحور والخمور، فالخصب إذن غاية الشاعر الأخيرة في اليسر والغنى. وكذلك كان الخصب السوق الرائجة لمن كسدت عليه تجارة الشعر. وهكذا جاء إنعام الخليفة على الخصب بالإمارة لعزمه الماضي ولنهوضه بجسام الأمور، وإذن فحق للشاعر وقد نأت به الدار أن ينقع الخصب غلته مرتهاً بصنيعه شكره.

أما المدحة الثانية فقد جمعت بين المقدمة الخمرية الغزلية وبين احتفالها بالرحلة ووصف الناقة وصفاً دقيقاً طويلاً مهتماً بتفصيل أجزاء جسمها وحركاتها وسيرها:

يا منةً امتنَّها السُّكْرُ  
 اعطتْكَ فوقَ مناكِ من قُبَلِ  
 يثني إليك بها سِوالفُه  
 ما ينقضي مني لك الشُّكْرُ<sup>(١)</sup>  
 من قيل إن مرَامها وعرُ  
 رشاً صناعةً عينه السُّحرُ  
 .....  
 ولقد تجوب بنا الفلاة إذا  
 شدنيُّ رعت الحمى فأتت  
 تُثني على الحاذين ذا حصل  
 صامَ النهارُ، وقالتِ العُفْرُ  
 ملءَ الحبال كأنها قَصْرُ  
 تعما له الشَّدْرانُ والخطْرُ

(١) ديوان أبي نواس، ص ٤٧٨، ط. الغزالي.

تَنْفِي الشِّذَا عَنْهَا بَدَى خُصَلُ  
وَحَفِ السَّبِيبِ يَزِينُهُ الضَّفْرُ  
تَتْرَى لِإِنْفَاضٍ، أَضْرَبَهَا  
جَدْبُ الْبُرَى فَخَدُودُهَا صِفْرُ  
يَرْمِي إِلَيْكَ بِهَا بَنُو أَمَلٍ  
عَتَبُوا فَأَعْتَبَهُم بِكَ الدَّهْرُ

أما المديح في هذه القصيدة البالغ عدد أبياتها عشرين بيتاً، فلم يتجاوز أربعة أبيات ولكن أبا نواس بلغ فيها من البراعة الفنية ما جعلها على قلتها تعني عن الكثير منها:

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ  
فَتَدْفَقَا فَكَلَاكُمَا بِحُرُ  
لَا تَقْعِدَا بِي عَنْ مَدَى أَمَلِي  
شَيْئاً فَمَا لَكُمْ بِهِ عُذْرُ  
وَيَحِقُّ لِي إِذْ صَرْتُ بَيْنَكُمَا  
أَلَا يَجِلُّ بِسَاحَتِي فَقْرُ  
النَّيْلُ يَنْعَشُ مَأْوَهُ مِصْرًا  
وَنَدَاكَ يَنْعَشُ أَهْلَهُ الْغَمْرُ

لقد راح يزواج بين هذا الممدوح وبين مصر بأسلوب لا يترك لممدوحه باباً للاعتذار كما سبق أن فعل، حتى إننا لا نعرف إلى من يوجه مديحه: إلى الخصب أم إلى مصر هبة النيل، فها هنا موازنة ضمنية بين طرفين لا يجوز فيها أن ترجح كفة أحدهما على الآخر إلا اختل التوازن، بهذا أوقع أبو نواس ممدوحه في شراك شعره، وهل يملك الخصب إذ قرنه الشاعر إلى مصر، هبة النيل، بكل خصبها وعطائها أن يقعد عن اللحاق بها وهو الأمير فلا يكون جواداً معطاء... فإن لم يفعل كان عوداً يابساً في تربة معطاء تتدفق عليها أمواه النيل.

أما القصيدة الثالثة فأقدر إن أبا نواس قالها في الفترة الأخيرة من إقامته في مصر، أو بعد فترة كافية من الإقامة هناك جعلته يستشعر الوحشة ويستبد به الشوق إلى مراتب صباه في بغداد وذلك حيث يقول<sup>(١)</sup>:

ذَكَرَ الْكَرْحَ نَازِحُ الْأَوْطَانِ  
فَصَبَا صَبُوءَ وِلَاتٍ أَوَانِ  
لَيْسَ لِي مَسْعَدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ  
قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانِ  
نَازِلَاتٍ مِنَ السَّرَاةِ فَكَرْحَا  
يَا إِلَى الشُّطِّ ذِي الْقُصُورِ الدَّوَانِي

وفي المدحة إشارة واضحة إلى ما كان ينعم به أبو نواس من سعادة غامرة إلى جوار الخصب حتى أصبح في مأمن من غوائل الدهر مما جعله يدعو من يسميها ابنته أن تسرف في الأمان:

إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي  
وَرَوَاحِي إِلَى بِيوتِ الْقِيَانِ

(١) ديوان أبي نواس، ص ٤٧٦، ط. الغزالي.

واغتفالي المولى لاختلس الغم  
واعتمالي الكئوس في الشرب تسعى  
يا ابنتي أبشري بميرة مصر  
أنا في ذمة الخصيب مقيم  
كيف أحشى عليّ غول الليالي  
قد علقنا من الخصيب جبلاً

إن أبا نواس لا يستسلم لأي طارق حزن، إذ سرعان ما يجد مسراته في الدنيا من حوله وها هو يمضي نهاره في مجلس الخصيب بمن يضم من دهاقنة السياسة والأدب، وفي المساء في بيوت القيان للشرب والسماع والمعاينة . . . !

أما المدح فقد استغرق في الأبيات الباقية من القصيدة وهي :

سَطَوَاتُ الخَصِيبِ إِحْدَى المَنَايَا      وَنداه      سَلَالَةٌ الحَيَوَانِ  
كُلُّ يَوْمٍ عَلَيَّ مِنْهُ سَمَاءٌ      ثَرَّةٌ      تَسْتَهْلُ بِالعَقْيَانِ  
حِيَةٌ تَصْرَعُ الرِّجَالَ إِذَا مَا      صَارَعُوا رَأْيَهُ عَلَى الأَذْقَانِ  
وَإِذَا مَا جَرَى الجَيَادُ طَوَاهَا      أَوْ حَدَّيْ العَنَانِ يَوْمَ الرِّهَانِ  
وَإِذَا هَزَّ الخَلِيفَةُ لِلجُلِيِّ      مَضَاهَا كَالصَّارِمِ الهُنْدَوَانِي  
قَادَنِي نَحْوَكُ الرِّجَاءِ فَصَدَقَ      نَ رَجَائِي، وَاخْتَرَّتْ حَمْدَ لِسَانِي  
إِنَّمَا يَشْتَرِي المِحَامِدَ حُرٌّ      طَابَ نَفْساً لَهْنٌ بِالأَثْمَانِ

أبو نواس لا ينسى أن ممدوحه رجل ذولة وسياسة وقع عليه اختيار الخليفة في ظروف سياسية بالغة الصعوبة وذلك على إثر نكبة البرامكة<sup>(١)</sup> وهكذا كان الخصيب يجمع بين الشدة والعطف، الشدة في معاملة العصاة مشبهاً إياه بالحية، والعطف على أبناء الرعية حتى كان لهم الحياة. من أجل هذا كان الخصيب موضع ثقة الخليفة في العظام من الأمور، سباقاً إلى المكارم لا يبارى كالمجلي بين الجياد، وسيفاً من سيوف الخليفة ماضياً بإرادته، موكلاً بالجليل من الأمور فاستحق الحمد والثناء.

أما رائيته الكبرى فتعتبر أم مدائحه في الخصيب وقد بلغت من الشهرة وذبوع الصيت أنها كانت

(١) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ٢٥٤ .

في حيازة كل إنسان في عصر ابن المعتز<sup>(١)</sup>. وقد عارضها العديد من الشعراء منهم أحمد بن دراج القسطلبي بأمر من المنصور بن أبي عامر<sup>(٢)</sup>. وكذلك حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي بقصيدة مدح بها صلاح الدين الأيوبي وقصده في مصر كما قصد أبو نواس الخصب<sup>(٣)</sup>. كما عارضها محمود سامي البارودي<sup>(٤)</sup> أيضاً كذلك حظيت هذه القصيدة بتقدير كبير من الباحثين المحدثين فهي القصيدة المشهورة<sup>(٥)</sup> وأشهر مدائحه<sup>(٦)</sup> وإحدى قلائده البديعة<sup>(٧)</sup>، وهي عند صاحبها أبي نواس عصا موسى «تلقف ما يأفكون»<sup>(٨)</sup>.

هذا وقد أثار مطلع القصيدة غير المؤلف بين مطالع مدائحه الكثير من التعليقات والتساؤلات:

أجارة بَيْتِنَا أبوكِ غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فالأقدمون يزعمون أن الشاعر أراد جارة في البيت وجارة في النسب<sup>(٩)</sup>، ونظراً لغرابة العبارة

وعدم وضوح مدلولها كان المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطي يخطيء في قراءتها فيقول:

«بَيْتِنَا» بكسر التاء ظناً منه إن هذا اسم مكان<sup>(١٠)</sup> أما الدكتور الشكعة فإنه يطلق على الجارة

في مطلع القصيدة صفة الحسناء المتمنعة<sup>(١١)</sup>؛ في حين يخلع عليها الدكتور على شلق ثلاث

صفات هي: إحدى جواري ذلك العصر أو جارة متخيلة أو هي جنان الثفوية صديقه القديمة على

الأرجح<sup>(١٢)</sup> ثم يعود إلى الزعم بأن المقصود هما آل برمك وآل الربيع<sup>(١٣)</sup> حتى إذا وصل الشاعر إلى

قوله:

تقول التي من بيتها خفّ مركبي عزيز علينا أن نراك تسيرُ

وجدنا الدكتور الشكعة يطلق على «التي من بيتها..» إحدى ثلاث صفات هي: الابنة أو

(١) طبقات الشعراء، لابن المعتز ص ٢١١.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٣٥.

(٣) فوات الوفيات لابن شاعر الكتيبي ١/٢٢٢. و: الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص ٢٣٧.

(٤) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص ٢٣٧. (٥) حديث الأربعاء لطف حسين ٢/١٣.

(٦) أبو نواس بين التخطي والالتزام لعلي شلق ص ٣٦٥. (٧) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٢٢٨.

(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٢٣٤. (٩) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٣٢.

(١٠) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص ٢٤. (١١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٢٩٩.

(١٢) أبو نواس بين التخطي والالتزام ص ٣٥٨. (١٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٥٩.

الزوجة أو الصاحبة<sup>(١)</sup> في حين يقتصر باحث آخر على تسميتها ابنة<sup>(٢)</sup> بينما يستمر عبدالرحمن صدقي على تسميتها بجارة<sup>(٣)</sup> أما الدكتور على شلق فإنه يعود إلى تساؤه إن كانت صديقة أو اختاً أو زوجة ولكنه يغلب صفة الزوجة<sup>(٤)</sup> . إلا إن قول الشاعر: «أجارة بيتينا . . .» منصوص فيه على الجارة فلا سبيل إلى تجاوز اللفظ الصريح ، إلى مقصود آخر، خاصة إن أبو نواس لم يتزوج ولم يكن له بنت ولا ولد، وإذن، فقد انتهى كون التي «من بيتها خف مركبي . . .» زوجة، كما أرى نفي «أجارة بيتينا» كونها واحدة بعينها مهما تكن صفتها وإنما كلتا العبارتين من قبيل التملح بالأسلوب، وحمل الكلام على تجاوز مدلوله المحدود بالمعاني المرسومة، إلى المجالات الموهومة . . . هي عملية شعرية تعبيرية محضة المقصود بها الإثراء الشعري كقيمة تعبيرية موحية مثيرة . . .!

هذا وتعتبر المدحة من القصائد الطويلة إذ تبلغ عدتها أربعين بيتاً. والمعروف أن أبو نواس كان يحاور نفسه بها منذ قيامه بالرحلة<sup>(٥)</sup> . لذلك سجل في قصيدته تسجيلاً مباشراً مراحلها والأغلب إنه استغرق في نظم قصيدته طوال رحلته وردحاً من إقامته في مصر، مما أدى إلى خلل ظاهر في ترتيب موضوعات القصيدة من ذلك إنه خاطب في مستهل القصيدة امرأة اختلف النقاد حول هويتها ليستأنف الحديث بعد نحو تسعة أبيات عن امرأة أخرى كان من الجائز أن يكون بداية معقولة لمدحة أو قصيدة أخرى مما يجعلني أرجح أن أبو نواس نظم هذه القصيدة في فترات متقطعة من رحلته وفترة أخرى من إقامته في مصر:

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسورٌ ما يرجى لديك عسير<sup>(٦)</sup>  
 وإن كنت لا خلماً، ولا أنتِ زوجةٌ فلا برحت دُوني عليك سُور<sup>(٧)</sup>  
 وجاورت قوماً لا تزاورُ بينهم ولا وُضِلَ إلّا أن يكون نشورٌ  
 فما أنا بالمشغوفِ ضربةً لازِبٍ ولا كلُّ سلطانٍ عليّ قديرٌ

- (١) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص ٢٩٩ .
- (٢) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول . لحسين عطوان ص ١٤٤ .
- (٣) أبو نواس ، قصة حياته في جده وهزله لعبد الرحمن صدقي ص ١٩٢ .
- (٤) أبو نواس بين النخطي والالتزام ص ٣٦١ .
- (٥) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هانئ (لمؤلف مجهول) . الورقة : ٢٢ .
- (٦) ديوان أبي نواس ص ٤٨٠ ط . الغزالي .
- (٧) الخلم : الصديق أو الصاحب .

وإني لطرف العين بالعين زاجرٌ  
 كما نظرت والريح ساكنة لها  
 طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة  
 فأوفت على علياء حين بدا لها  
 تقلب طرفاً في حجاجي مغارة  
 من الرأس لم يدخل عليه ذرور<sup>(١)</sup>  
 من الشمس قرن والضرب يمور<sup>(٢)</sup>  
 من الرأس لم يدخل عليه ذرور<sup>(٣)</sup>  
 من الرأس لم يدخل عليه ذرور<sup>(٤)</sup>

بدأ أبو نواس مدحته بمخاطبة جارته بحوار من الغزل الرقيق، ولأن هذه الجارة بخيلة استحال  
 وصالها ولأن أبا نواس خبير ذو فراصة صاحب كبر وكبرياء فليس للحب عليه سلطان . . .

ثم ينتقل من الحديث عن نفرة جارته وصدق فراسته إلى الحديث عن جوار زوجته<sup>(٥)</sup>؟

تقول التي عن بيتها خف مركبي  
 أما دون مصر للغنى متطلب  
 فقلت لها واستعجلتها بوادر  
 ذريني أكثر حاسديك برحلة  
 إذا لم تزر أرض الخصب ركابنا  
 فتى يشتري حسن الشاء بماله  
 فما جازه جود ولا حل دونه  
 عزيز علينا أن نراك تسير  
 بلى إن أسباب الغنى لكثير  
 جرت فجرى في جريهن عبير  
 إلى بلد فيه الخصب أمير  
 فأى فتى بعد الخصب تزور  
 ويعلم إن - الدائرات تدور  
 ولكن يصير الجود حيث يصير

نستطيع أن نتبين من خلال هذا الحوار القصير جزع تلك المرأة على أبي نواس من مغبة الرحلة  
 الطويلة ومحاولة ثنيه عن عزيمته، لكن أبا نواس مصر على الرحلة حيث ينتطره الغنى واليسار فليس  
 بعد الخصب غاية لمطلب أو لجدو فهو الفتى الذي يبذل ماله قبل عرضه فاشترى محمده وبعده  
 صيته بالثمن الغالي، وهو البصير بتقلبات الأيام الخبير بأحوال الزمان. يذكر ابن منظور، إن أبا

(١) الزجر: التكهن والعبافة. أي أزجر بعيني عيون الناس واستبين ما في ضمائرهم.

(٢) ندور: خروج العظم من موضعه أو زواله.

(٣) أزيغ: الفرح ذو الزغب أي الريش الدقيق - الشكير - الريش أول ما ينبت.

(٤) الضرب: الثلج أو الجليد.

(٥) الحجاجان: مثنى الحجاج وهو العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب، الذرور: ما يذر في العين من الدواء.

(٦) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك، ص ٢٤٢.

نواس حين بلغ في قصيدته قوله: ذريني أكثر حاسديك . . . (قال إذا يكثر حسادها وتبلغ أملها وأمر له بألف دينار)<sup>(١)</sup>.

ولا ينسى أبو نواس أن يشيد بالخصيب الحاكم رجل الدولة منوهاً بتنكيله بالعابثين الخارجين على الطاعة وتكبيلمهم بالقيود والقائهم في غياهب السجون، كذلك نوه بإخلاص الخصيب للخليفة مذ كان يافعاً حتى بدا الشيب في عوارضه، وبقيامه مقام الخليفة بما يكفيه من أحداث الأمور وذلك ما يعرفه الخليفة نفسه إن كان هناك من يجهره:

وأطرقُ حياتِ البلادِ لحيَّةُ  
سموتُ لأهلِ الجورِ في حالِ أمنهم  
إذا قام غنته على الساقِ حليَّةُ  
فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي  
وما زلت توليه النصيحةَ يافعاً  
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفيتهُ  
خصيبيةُ التصميمِ حين تسورُ  
فأضحوا وكلُّ في الوثاقِ أسيرُ  
لها خطوةٌ عند القيامِ قصيرُ  
فإن أمير المؤمنين خبيرُ  
إلى أن بدأ في العارضين قتيْرُ<sup>(٢)</sup>  
وإمّا عليه بالكفاءِ تُشيرُ

أظهر ما في هذه الأبيات تشبيه الخصيب في قوة شكيمته وحزمه وتصميمه بالحية «حية خصيبية» على أن لا ننسى تأثر الشاعر بما هو معروف وذكره القرآن الكريم من قصة سيدنا موسى مع فرعون والسحرة.

أما وصف الرحلة التي ربما امتدت إلى أكثر من شهر وقطع أبو نواس خلالها مئات الفراسخ والأميال فقد تأخر بها الشاعر كما لاحظ ذلك كل من كتبوا عن هذه القصيدة ليجعلها تتوسط أبيات مديحه في الخصيب، على أن ما جاء في هذا الوصف لا يعدو السرد لأسماء البلاد والمواقع التي مرَّ بها الشاعر في طريقه من العراق إلى مصر. وهكذا خلت هذه القطعة من القصيدة من الآثار المحتملة لما تركته الرحلة في نفس الشاعر<sup>(٣)</sup> كما إنه لم يزدنا بأحوال تلك المعالم والمواقع الجغرافية المختلفة:

إليك رميتُ بالقومِ هوجُ كَأتْمَا  
جَمَاجِمَهَا فَوْقَ الْحِجَاجِ قُبُورُ

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢٣٦/١.

(٢) القتيْر: الشيب.

(٣) الموازنة بين الشعراء لركي مبارك، ص ٢٦٨.

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا  
فما نجدت بالماء حتى رأيتها  
وغمرن من ماء النقيب بشرية  
ووافين إشراقاً كنائس تدمر  
يؤممن أهل الغوطتين كأنما  
وأصبحن بالجولان يرضخن صخرها  
وقاسين ليلاً دون بيسان لم يكد  
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس  
طوالب بالركبان غزة هاشم

من الصبح مفتوق الأديم شهير<sup>(١)</sup>  
مع الشمس في عيني أباغ تغور<sup>(٢)</sup>  
وقد حان من ديك الصباح زمير<sup>(٣)</sup>  
وهن إلى رعن المدخن صور<sup>(٤)</sup>  
لها عند أهل الغوطتين ثور<sup>(٥)</sup>  
ولم يبق من أجرامهن شطور<sup>(٦)</sup>  
سنا صبحه للناظرين ينير<sup>(٧)</sup>  
وهن عن البيت المقدس زور<sup>(٨)</sup>  
وفي الفرما من حاجهن شقور<sup>(٩)</sup>

هكذا كانت بداية الرحلة مع الصباح الباكر من عقرقوف فما وافى المساء بعد يوم طويل من السفر المرهق جعل النياق تنضح عرفاً، حتى كن بعيني اباغ فأخطأ في العدد، كذلك اخطأ أبو نواس في ترتيب المواقع التي مرَّ بها فقد قدم «النقب» من صحراء فلسطين على تدمر من بلاد الشام، ومن بعد تدمر جبل المدخن ثم مروراً بالغوطين ومن ثم مرَّ الركب بالجولان ثم بيسان في غور الأردن وبعدها نهر فطرس من فلسطين أيضاً، منحرفة عن بيت المقدس. وهذا عجيب فقد كان أولى بالشاعر أن لو مرَّ ببيت المقدس ناقلاً إلينا مشاعره تجاه أولى القبلتين. ومن بعد اتجه الموكب إلى غزة هاشم فبلدة الفرما بسياء مصر لتوافي بعدها الفسطاط حيث يقيم الممدوح.

بعد هذا الوصف التسجيلي لرحلة الشاعر يعود بنا أبو نواس إلى المديح ثانياً من غير إضافة

(١) عقرقوف: قرية من نواحي دجيل، مفتوق الأديم: مشقوق الجلد كناية عن ظهور الصباح.

(٢) نجد: عرق. قال أبو نواس: حرصت على أن يقع في هذا الشعر عيبين أباغ فامتعت علي فقلت: في عيني أباغ: وهي واد وراء الأنبار على طريق الفرات.

(٣) التغمير: سقي دون ري. زمير: صياح.

(٤) المدخن: جبل من أراضي الشام. الرعن: أعلى الجبل.

(٥) أجرامهن: أجسادهن. شطور: أنصاف. يرضخن: يكسرن بقول: لم يبق من أجسادهن إلا أنصافها.

(٦) فوزن: مضين، وقيل ركين المفازة. نهر فطرس: نهر بأرض فلسطين.

(٧) الفرما: هي المدينة التي كانت كرسي الديار المصرية في زمن إبراهيم عليه السلام.

شقور: جمع شقروهي الأمور المتعلقة بالقلب.

تذكر من شمائل وفضائل إلى ما عهدنا من خصال ممدوحه :

ولما أتت فسطاط مصر أجازها      على ركبها أن لا تزال مجير  
من القوم بسام كأن جبينه      سنا الفجر يسري ضوءه ونيير  
زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى      وفي السلم يزهو منبر وسرير  
جواد إذا الأيدي كففن عن الندى      ومن دون عورات النساء غيور  
له سلف في الاعجمين كأنهم      إذا استؤذنوا يوم السلام بدور  
وإني جدير إذ بلغتك بالمنى      وأنت بما أملت منك جدير  
فإن تولني منك الجميل فأهله      وإلا فإني عاذر وشكور

فالخصيب من لا يهان له جار، وهو رفيع المكان سامي المقام، وضاء الجبين كإشراقه الفجر في سلمه وبسطته، فإذا جد الجد تقلد سيفه ورمحه بيمينه. وهو الجواد بالمال، إذا بخل غيره، والفضين بالعرض.

هذا، ولم يفت أبا نواس التلويح للممدوحه بالمكاس أو الغرض المقصود بهذه المدحة، فأما العطاء فالشاعر شكور، أولاً فالممدوح معذور، والظاهر إن هذا الختام كان مرسوماً لأن (خاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق في النفس، لقرب العهد بها فإن حسنت حسن وإن قبحت قبح...<sup>(١)</sup>).

هذا، وقد لا يحسن بنا أن ننهي الحديث عن مديح أبي نواس في الخصيب من غير الإشارة إلى ما يمكن أن يكون للبيئة المصرية من أثر في هذا المديح. وهنا نقول: إن أبا نواس رحل إلى مصر وهو في نحو الخمسين من عمره أو أكثر وإن إقامته بمصر كانت قصيرة لم تتجاوز العام الواحد وكانت رحلته لغاية محددة هي الحصول على المال بوسيلة المدح وإنه رحل من بغداد مثابة العلم والثقافة لذلك العهد إلى قطر كان النشاط الأدبي ما يزال فيه ضعيفاً، ويبدو إنه ظل طوال إقامته في مصر مشدوداً إلى مراع أنسه في بغداد وأرباضها، هذا إلى أن حياته في مصر لم تعد حضور مجالس الأمير صباحاً، وفي المساء يتردد على بيوت القيان وما يصحب ذلك من لهو وعبث:

إذ لباب الأمير صدر نهارِي      ودواحي إلى بيوت القيان  
أجل، لقد تردد اسم مصر في معظم مدائحه ولكن بصورة ساذجة سطحية غايته الظفر من

(١) العمدة: ٢١٧/١.

مددوحيه بالنوال الوفير:

- متى أجمع أبا نصرٍ ومصرأً  
- أنت الخصب وهذه مصرُ  
فما للدهرِ بينهما مكانُ  
فتذفقا فكلأكما بحرُ  
ونداك يُنعشُ أهله الغمرُ  
يا ابنتي أبشري بميرة مصرِ  
وأستبعدت مصرأً وما بعدتُ  
والمقد وصلتُ بك الرجاء ولي

كل هذا من غير أن يشعرنا أبو نواس بأي أثر تركته مصر في نفسه كأنما غشى على عينيه داء عمى الألوان حتى لا يرى ما في البيئة الجديدة من مفااتن ومعالم وآثار. والحق إن أبا نواس لم يحسن مدح مصر كما مدح الخصب لضعف تأثيره بها أو تأثيرها فيه بل إنه لم يتورع عن هجائها وهجاء بعض أهلها ومنهم الخصب وهاشم بن حديج العالم الفيلسوف<sup>(١)</sup> وفي ديوانه بيتان من الشعر وردا في باب الهجاء<sup>(٢)</sup> قالهما متخوفاً من تماسيح النيل فكأنه لم ير في النيل إلا تماسيحه غافلاً عن مفااتنه وبركاته.

ولعل أهم أثر تركته مصر في مديح أبي نواس للخصب هو استغلاله لقصة سيدنا موسى مع فرعون والسحرة فقد شبه رائته الكبرى في إتيانها على قصائد الشعراء بحية موسى التي لفتت ما ألقى السحرة من حبال انقلبت إلى حيات بل لقد رأينا ينسب الحية إلى الخصب فهي خصيبة لا موسوية وذلك حيث يقول:

وأطرقُ حياتِ البلادِ لَحِيَّةٌ خصيبةٌ التصميمِ حينَ تُسورُ

وفي تنديده بالشوار الذين نكل بهم الخصب رمى أبو نواس أولئك بالشوار بإفك فرعون الذي واجهه موسى فانتصر عليه وعلى سحرته بالعصا. وهكذا كان دور الخصب قد أوتي من المقدره والكفاية ما لعصا موسى أو هو الحية نفسها أكلوا شروبا لكل حية في البلاد تحدثها نفسها بالعصيان أو الثورة كما فعلت حية موسى أو عصاه التي أكلت حيات فرعون وسحرته:

فإن يكُ باقٍ إفكُ فرعونَ فيكمُ فإن عصا موسى بكفَّ خصيبِ  
رماكم أميرُ المؤمنين بحيةٍ أكلولٍ لحياتِ البلادِ شروبِ

(٢) ديوان أبي نواس ص ٥٦١ ط. الغزالي.

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٧٣/٢.

واضح إن أبا نواس يستوحي من القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى : ﴿فَأَلْقَىٰ مَوْسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾<sup>(١)</sup> و﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكذلك قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا مَوْسَىٰ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَزِيزٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ أَنْ تَلْقَ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .

واضح من هذا العرض لمديح الأعيان مدى غناه ووفرتة وتنوعه ، فهو أغنى من مديح الخلفاء موضوعاً . ومن جهة الشكل كان أشمل لمختلف اتجاهات أبي نواس التجديدية التي وجدت في مديح الأعيان مجالاً خصيباً هذا إلى أن قدرات أبي نواس الفكرية والثقافية كانت أظهر في مديح الأعيان منها في مديح الخلفاء ، مما دفع بفن المديح عند أبي نواس إلى أن يكون صورة لأبي نواس المقلد المجدد ، أو المجدد المقلد كما لم يكن في أي فن آخر .

- أعيان آخرون :

لا يشكل مديح هذه الفئة من الأعيان ظاهرة متميزة إذا ما قيس بعرائس مدائح من أشرنا إليهم من الأعيان . إن أول من يطالعنا من هؤلاء الأعيان اسم عثمان بن عثمان بن نهيك الذي كان أبوه عثمان بن نهيك - من اليمن - أحد الدعاة السبعين للدولة العباسية<sup>(٤)</sup> والذي أصبح رئيس حرس أبي جعفر المنصور<sup>(٥)</sup> واستمر ابنه عثمان يعمل في خدمة الدولة العباسية إلى عهد هارون الرشيد ، وهو غير عثمان بن إبراهيم بن نهيك الذي وشى بأبيه عند هارون الرشيد حتى قتله<sup>(٦)</sup> ولأبي نواس في عثمان بن عثمان هذا ثلاث مقطوعات واحدة لم يوثقها الصولي وهي أهمها وأولها بالاهتمام والأخريان وثقهما الديوان بطبعاته الأربع التي لدي .

أما المقطوعة التي لم يوثقها الصولي فتقع في أحد عشر بيتاً وقد بدأها رغم قصرها بالوقوف على الأطلال داعياً إلى عدم بغضها ، وهذا غريب لأن أبا نواس يناقض مواقفه الأخرى من الأطلال ،

(١) القرآن الكريم : سورة الشعراء - آية : ٤٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة الأعراف - آية ١٠٧ .

(٣) القرآن الكريم : سورة الأعراف - آية ١١٥-١١٧ .

(٤) أخبار الدولة العباسية ، لمؤلف مجهول ، بتحقيق الدكتور عبدالعزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطليبي

ص ٢١٨ ، ٢٢٠ .

(٥) تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ٢ / ٩٠ .

(٦) تاريخ الطبري ٣١١ / ٨ .

كما إنه يرحل على شملة ضخمة قوية طويلة الظهر. إن الشاعر يستهل قصيدته على هذا النحو:

لمن الديار تسربلت ببلاها      نسيك ربها وما تنساها  
لا تكذبن فما أراك بمنته      عنها وإن كلفت أن تشنها  
فاقر الهموم إذا عرتك شملة      عبت مناكها، وطال قراها<sup>(١)</sup>

على أن أبرز ما في هذه المقطوعة حماس أبي نواس لممدوحه منوهاً بنسبه القحطاني مما يشتم منه ربح عصبته اليمينية بالولاء، ثم هذه الفحولة الشعرية معنى ومبنى شكلاً وموضوعاً مما يذكرنا بمدائح مسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد الشيباني وذلك حيث يقول:

لتزور من قحطان قرم مغاول      لا معجبا صلفاً، ولا تياها<sup>(٢)</sup>  
خضعت لعثمان بن عثمان العلى      حتى تسنم فوقها فعلاها  
تُسي المكارم حيث يُسي رحله      وإذا غدا في منزل أغداها  
سيف منايا الناس فيه كوامن      معطوفة اليمنى على يسراها  
فإذا الخليفة هزه لضريبة      أنحى على مكروهها فمضاهها  
وكذاك عك لا تزال سيوفها      تنهل من مهبج الكماة ظباها  
فاحذر عداوتها وصل لسلمها      فكما عرفت سيوفها وقناها  
قوم إذا وجدت عليك صدورهم      لم ترض عنك منية تلقاها

لقد جمعت هذه الأبيات القليلة العدد من المعاني الجليلة والصور البارعة ما أهلها لأن تكون في عداد عيون مدائح الشاعر. فهذا السيد الجحجاح في قومه، الغير تياه، ولا الصلف، والذي تلازمه المكارم في حله وترحاله هو نجدة الخليفة، فما إن يهزه لمكروه حتى يمضي إلى غايته غير متوان ولا متردد. وكذلك هو من قوم في شدة بأسهم وقوة شكيمتهم تورث عداوتهم الموت والهلاك.

أما الميقطوعان الأخريان فلم يأت أبو نواس فيهما بجديد إذا ما قيستا بالمقطوعة السابقة وربما كانتا مجتزأتين من قصيدتين طويلتين. وتقع الأولى في ثلاثة أبيات يقول فيها:

هارون إنك للسادات من مضر      وخير قحطان عثمان بن عثمان<sup>(٣)</sup>

(١) الشملة: الناقة السريعة. عبت: ضخمت وامتلات، قراها: ظهرها.

(٢) القرم: السيد العظيم. المغاول: جمع مغول وهو السيف الدقيق.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٩٣ ط. الغزالي.

هارون إنك للسادات من مضرٍ وإن سيفك من أبناء قحطان  
 فاشدّد يدك أمير المؤمنين به فما لسيفك في الأسياف من ثان  
 لقد جمع أبو نواس بين ممدوحه وبين خليفته بل بين مضر «قبيلة الخليفة» وبين قحطان «قبيلة  
 الممدوح» ثم بين مضر وسيفها قحطان وإذن فليشدّد الخليفة يده على سيفه القحطاني الذي لا  
 يعدله سيف...!

وفي المقطوعة الثانية كرر أبو نواس كلاماً عادياً فممدوحه عثمان بن عثمان لا يكاد يبقى على  
 مال له إلا تصدق به على المعدم حتى إذا فنى المال فإن جوده لا يفنى لعله يريد إن أثر الجود لا  
 يفنى وإن المحامد خالدة كذلك بذ ممدوحه الناس كافة في ابتناء المعالي:

عثمانُ يا أكرمَ البرايا من ذي معدٍ وذي يمان<sup>(١)</sup>  
 ما جمعت راحتك مالاً ومُعديماً قطُّ في مكانِ  
 المال يفنى على السبالي وجود كفيك غير فانِ  
 بنى المعالي له أبوه فبذ في ذاك كل بانِ

ومن ممدوحي أبي نواس اليمنيين أيضاً عاصم بن عتبة الغساني، ومديحه فيه أدنى إلى  
 المفاخرة منه إلى المديح بمفهومه التقليدي:

إفخر بغسان في ذوي يمن وعاصمٌ وحده لغسان<sup>(٢)</sup>  
 وما لغسان مثله أبداً ولا كغسانه لقحطانِ

ومن أشهر ممدوحي أبي نواس اليمنيين هاشم بن حديج أحد أعيان مصر ممن غلبت عليه  
 الفلسفة والعلوم<sup>(٣)</sup> ولأبي نواس فيه قطعة من الشعر يعتذر فيها إليه عن هجائه متقلباً على النزارية<sup>(٤)</sup>.

ومن الأعيان الآخرين الذين مدحهم أبو نواس اثنان من الفرس أحدهما هو الحسن بن  
 إسماعيل بن أبي سهل بن نبيخت... (وآل نبيخت كلهم فضلاء لهم فكرة صالحة. ومشاركة في  
 علوم الأوائل)<sup>(٥)</sup> وتكشف المقطوعة التي مدحه بها أبو نواس عن علاقة وطيدة جمعت بينهما ويذكرنا

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٩٥ ط. الغزالي.

(٢) ديوان أبي نواس ٢٩١/١ بتحقيق فاجنر.

(٣) ديوان أبي نواس ٤٠/٢ بتحقيق فاجنر.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦٠٧ ط. الغزالي.

(٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١١٤ للقفطي ط. دار الآثار بيروت.

استهلالها ببعض مطالع مدائحه في آل الربيع<sup>(١)</sup> فقد بدأها بالغزل في أسلوب اخواني من العتاب الرقيق باعد ما بينها وبين المدائح التقليدية في استهلالاتها المعهودة. يقول أبو نواس في مسنهل مقطوعته في الحسن بن إسماعيل:

يا قمرَ الليل إذا أظلمَا      هل ينقُصُ التسليمُ من سلَمَا<sup>(٢)</sup>  
 قد كنتَ ذا وصلٍ فمنْ ذا الَّذي      علَمَكَ الهجرانَ لا علَمَا  
 إن كنتَ لي بين الوري ظالمًا      رضيتُ أن تُبقَى وأن تظلمَا

وأما المدح فلا يقل عدوية ولا رقة عن الاستهلال الغزلي، مع أنه لم يقدم فيه شيئاً ذا بال فما زاد على أن كرر كلاماً معروفاً عن حرص ممدوحه على كسب المحامد بالبذل والجود وإبشاء الأمجاد بحسن الأحداث والتصميم:

هذا ابنُ إسماعيلَ بيني العلي      وبصُطفي الأكرمَ فالأكرمَا  
 يزيدُ ذا المالَ إلى مالِهِ      ويخلفُ المالَ لمنْ أَعَدَمَا  
 يرى انتهازَ الحمدِ أكرومةً      ليسَ كمنْ إنْ جئتَه صَمَمَا  
 سلُ حسناً تسألُ به ماجداً      يرى الَّذي تسألُه مَغْنَمَا

أما العين الفارسي الآخر فهو عبدالوهاب بن مایسان. وفي خبر ينقله محقق ديوان أبي نواس إنه استهدى ممدوحه قرآناً فعوضه عنه مالاً كثيراً حملة بطرف ردايه وهو يقول: (والله ما يستحق مني إلا أجل مدحه . . .)<sup>(٣)</sup> فمدحه أبو نواس بالمقطوعة التالية:

ما حاجةٌ أولى بِنُججٍ عاجلِ      من حاجةٍ علقَتْ أبا تمامِ<sup>(٤)</sup>  
 فرُعُ تمكّن من أرومِ عمارةِ      بقيتُ مناقبها على الأيامِ  
 لما ندبتك للمهم أجبتني      لبيك واستعدبت ماء كلامي  
 فأرغ المواعيد التي القحتها      حتى يكون نتاجها لتمامِ  
 فإذا بسطت يداً إليّ بغوثةِ      فلقد هزرتك هزة الصمصامِ  
 كم نار حرب ضلالةٍ أطفأتها      ورضاع جهلٍ كدته بقطامِ  
 إن الملوک رأوا أباك باعين      قد كُحلت بمرآود الأعظامِ

(٢) ديوان أبو نواس ص ٥٠٢ ط. الغزالي.

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٦٠، ٤٦٣ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٥٠١ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٥١٥ ط. بغداد.

واستودعوا تيجانهم تمثاله<sup>١</sup> والله يعلمه مع الأقسام  
يمدحه بكرم الأرومة ونبيل المحتد، وإنه غوث المستجير به، إلا أن يجهل عليه جاهل  
فيعالجها بحد حسامه البتار. وهذا مديح خال من الطرافة والابتكار غير أن أبا نواس يفاجئنا  
في البيتين الأخيرين من هذه المقطوعة بالإشارة إلى حكاية من الحكايات الفارسية القديمة  
كأثر لثقافته الفارسية والضرورة تقتضي أن نلحق الحكاية في الهامش لتبين من مدلول  
البيتين الأخيرين ما كان لجد ممدوحه من مكانة عالية عند الملوك<sup>(١)</sup>.

وهكذا فنستطيع القول إن مديح هذه الفئة من الأعيان الآخرين على قلته وعدم تميزه  
بالأفكار المبتكرة والصور الطريفة، إذا ما قيس بمديح من أشرنا إليهم من الأعيان، قد كمل  
لنا صورة المديح في هذه البيئة الاجتماعية التي كان أبو نواس يمرح ويرعى في جنباتها.  
- مديح العامة:

قد لا يختلف هذا الضرب من مديح أبي نواس عن مديح من ألحقناهم بالأعيان من  
ممدوحيه إلا في دلالاته الاجتماعية فهذه الفئة من الناس ممن أطلقنا عليهم لفظ العوام إذا  
لم يكونوا أمراء ولا وزراء فإنهم بحكم ما كانوا يكلفون به من مهام على جانب غير قليل من  
الخطورة ويكفي أن تراجع تاريخ الطبري لنقف على ما كان لمثل هذه الفئة من دور في حياة  
الدولة العباسية من غير أن يرتفعوا عن صفة الخادم أو يحتلوا مرتبة اجتماعية أرقى فقد ظلوا  
بازاء الطبقة العالية توابع وأعواناً أو خدماً ولكنهم لم يتدنوا بدرجةهم أو طبقتهم الاجتماعية  
إلى الحد الذي يلحقهم بأبناء الشعب من الفقراء والممقلين. وأما نزوع أبي نواس إلى  
مديح البعض منهم فقد كان لهذه المكانة التي كانوا يتمتعون بها في قصور الخلفاء أو  
الأعيان، وهكذا غلب على مديح هذه الطبقة من الناس صفة الرجاء أو التوسل أو  
الاستعطاف مع ما يصحب المديح أي مديح عادة من معاني التبجيل والتنويه بالذكر.

(١) موجز القصة إن الملك أردشير حين ذهب إلى حرب الجرامقة استودع زوجته التي كانت حاملاً أبرسام جد  
الممدوح، وقد صان أبرسام الأمانة حتى ولدت زوجة الملك فسمى أبرسام الوليد شاهفور أي ابن الملك. وحين  
عاد الملك وعلم بحقيقة الأمر كافأ أبرسام بالحياء العظيم وأقعده على رأسه بأن رسم صورة أبرسام على حرية  
وسماها أفرسان أفره فلبسها تحت تاجه ولبسها بعده ملوك بني ساسان إلى أن جاءت دولة العرب فنقضت لبس  
التاج وهذا هو معنى قول أبي نواس: فاستودعوا تيجانهم تمثاله.

من أبرز ممدوحى أبي نواس العوام اثنان هما الحسين الخادم مولى هارون الرشيد،  
وعبيد الخادم مولى أم جعفر.

أما الحسين الخادم المعروف بعرق الموت فقد كتب له بعض ولد عبد الحميد الكاتب ويعرفون  
ببني المهاجر<sup>(١)</sup> وكان له دور مشهور في الإيقاع بالبرامكة<sup>(٢)</sup> إذ كان مقرباً جداً من الرشيد<sup>(٣)</sup> وكذلك  
احتل مثل هذه المكانة لدى الأمين<sup>(٤)</sup> حتى كان يشاوره في خصوصياته<sup>(٥)</sup>. بل ظلت له مثل هذه  
المنزلة عند المأمون<sup>(٦)</sup> وقد مدحه أبو نواس بمقطوعتين عدة الأولى ستة أبيات والأخرى سبعة.

أما المقطوعة الأولى فقد استهلها بأبيات من الغزل الرقيق ذكرتنا ببعض مطالع أبي  
نواس الإخوانية التي أشرنا إليها في أثناء هذا الفصل:

يا خليلي ساعة لا تريما      وعلى ذي صباية فأقيما<sup>(٧)</sup>  
ما مررنا بدار زنبب إلا      فضح الدمع سرتنا المكتوماً  
ذكرتني الهوى وهن رميم      كيف لو لم يكن صرن رميما

وكان طبعياً أن ينصرف المديح إلى الغرض الذي من أجله نظم أبو نواس هذه المقطوعة لذلك  
امتدح جوار الحسين فهو أمان من عثرات الزمان فإن توجه إليه سائل بالمعضل العظيم كان جديراً  
بدفع غائلته. في هذا المديح ساوى أبو نواس بين الحسين الخادم وبين عظام ممدوحيه:

تجافى حوادث الدهر عمن      كان في جانب الحسين مقيما  
قال لي الناس إذ هزرتك للحا      جة ابشر فقد هزرت كريمما  
فاسألنه إذا سألت عظيمًا      إنما يسأل العظيم العظيمما

أما المقطوعة الثانية فقد نصت صراحة على مكانة الحسين عند الرشيد لذلك أدارها أبو نواس  
حول طلب التوسط من أجل إطلاق سراحه من السجن ونظراً إلى ما كان يضطرب فيه أبو نواس من  
آلام الحبس خلت هذه المقطوعة من المقدمة الغزلية التي تصدرت المقطوعة السابقة:

(١) الوزراء والكتاب للجهمي ص ٨٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢٩٦/٨.

(٣) وفیات الأعيان ٤٧٢/١، ٣٨٦/٦.

(٤) المصدر السابق نفسه ٣٦٦/٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ٥٢٠/٨.

(٦) المصدر السابق نفسه ٥٧٨/٨.

(٧) ديوان أبي نواس ص ٥٠٣ ط. الغزالي.

تُلَقَى المراتبُ للحسين ذليلةً  
أعطيت أثمان المحامد أهلها  
إن الإمام إذا اجتباك بسرّه  
لم يبُلْ مثلك عفةً فيما بلا  
وخلطت خوفك للإلهِ بخوفه  
أبلغ هُديت إلى الإمام رسالةً  
وشهادتي إنني حليفُ عبادةٍ  
وإذا سواه يرومها تتعصبُ<sup>(١)</sup>  
وكسبت صفوتها ونعم المكسبُ  
لمسدّد فيما أتى ومُصوّبُ  
وحزامةً في كل أمر يحزُبُ  
فعلمت ما تأتي وما تتجنّبُ  
عني بأنني بعدها أستعتبُ  
فابلوا على الأيامِ ذاك وجرّوا

لقد أضفى أبو نواس على ممدوحه الخادم كل شمائل الأعيان من سجايا عظيمة ومكانة مرموقة واكتساب المحامد ومن حزم وعفة حتى أصبح موضع سر الخليفة . وهو معظم لخليفته حتى إنه يخلط مخافته بمخافة الله وهكذا استأهل الحسين الخادم أن يحمل عن أبي نواس رسالة رجاء وتوسل إلى الخليفة مع إقراره بالتوبة والأتابة . . !

أما الخادم الآخر واسمه عبيد فلم يكن بأقل من الحسين أهمية فاتجه إليه أبو نواس بالمقطوعة التالية :

جعلتُ عبيداً دون ما أنا خائفُ  
أشارَ إليه الناسُ من كل جانبٍ  
فتى لا يحب الكسب إلا أحلهُ  
عيوفٌ لأخلاق اللئام وهديهم  
ويقتصر كُفُ الدهر عن أجاره  
وصيرته بيني وبين يد الدهر<sup>(٢)</sup>  
وقالوا أبو عمرو لها وأبو عمرو  
ولا الكنز إلا من ثناء ومن سُكْرِ  
وذو زورٍ عمّا يُقرّبُ من وزرٍ  
ويرعى من الآفات من حيث لا يدرى

جعل أبو نواس عبيد الخادم عصمة له من أن تناله يد الدهر بمكروه كما أن جاره في حمى من المهالك وعبيد هذا كسبه حلال ورأس ماله الثناء والشكر وهو مجانف لأخلاق اللئام مزور عن الوزر وكل هذه السجايا التي أضفاها أبو نواس على عبيد الخادم هي من شمائل عظماء الرجال . . . !

أما الممدوح الثالث فاسمه نصير ولقبه الوصيف وفي ديوان أبي نواس مدحة طويلة فيه من بحر

(١) ديوان أبي نواس ص ٥٠٣ ط . الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٩٢ ط . الغزالي .

الرجز، تقع في نحو أربعين بيتاً وقد نص كل من الصولي<sup>(١)</sup> والأصبهاني<sup>(٢)</sup> على أن هذه القصيدة من المنحول إلى أبي نواس لذلك صرفنا النظر عنها ولم نجد لنصير الوصيف هذا مدحة أخرى إلا أن هناك وصيفاً آخر اسمه موسى بن الفضل الوصيف وهو أخ الحسين الحاجب وقد مدحه أبو نواس بقصيدة من المجثت تقع في ثمانية وعشرين بيتاً، ومع أن أبا نواس اعتبرها من عبثه الشعري<sup>(٣)</sup> بالقياس إلى قصيدته المشهورة «أيها المنتاب عن عفره» إلا إنني أرى خلاف ذلك، فهذه المدحة لا تخلو من رقة وعدوية نلمسها في كثير من مقطوعاته الاخوانية المدحية. وقد بدأ أبو نواس قصيدته باستهلال من الغزل الرقيق استغرق في معظم أبيات القصيدة مصوراً بكثير من الاستعارات والمحسنات البدعية ما يلاقه المحب من ظلم حبيبه أو هجره وما يسببه له من تباريح وآلام وهو مستسلم لقدره منوط بحبه لا يتحول عنه في خشوع العابد الناسك في ديره:

طابَ الهوى لعميده	لولا اعتراض صدوده <sup>(٤)</sup>
وقادني حب ريم	مهفهف الكشح روده
كالبدر ليلة عشر	وأربع لسعودة
.....	.....
لا أستطيع فراراً	من برقه ورعوده
وعسكرُ الحبِّ حولي	بخيله وجنوده
فإن عدلتُ يميناً	خشيتُ وقع وعوده
وإن شمالاً فموتٌ	لا بد لي من وروده
.....	.....
فلست أرفعُ طرفي	حذارَ ماضي حديده
ولي خشوعُ المصلّي	في ديره يومَ عيده
كأنني مستهأمٌ	ضلَّ الطريقَ بيده
لو لاح لي منه نهجٌ	ركبتُ نهجَ صعيده
فالويل لي كيف أنجو	من حُمُرِ موتٍ وسُوده
.....	.....

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٧٩ ط. بغداد.

(٢) ديوان أبي نواس ١/٢٧٩ تحقيق فاجنر.

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٩، ١٦٥ (٤) ديوان أبي نواس ص ٤٩٧، ٤٩٨ ط. الغزالي.

وبعد أن ضاقت بأبي نواس السُّبل وتولاه ضيق شديد لم يكن أمامه إلا موسى الوصيف يدفع عنه غائلة هذا الحب الممض . فكم من شديد دفع عنه فهو الجواد الذي غنى له السماح من دون غيره من الناس :

لا شيء إلا اشتغالي	بئمن موسى وجوده
فكم شديد به قد	دفعتُ خوفَ شديده
لا مرةً بعد أخرى	أكلُ عن تعديده
أيام أنفُ حسودي	دام ، وأنفُ حسوده
غنى السَّماحُ بموسى	في هزجه ونشيدِه
وكيف يَهزجُ إلا	بالفهِ وعقيدِه

بهذا العرض لمديح أبي نواس نستطيع القول إن شاعرنا كان من أكثر شعراء زمانه مديحاً، متردداً فيه بين مختلف الاتجاهات والمذاهب . ففي الوقت الذي كان فيه من أكثر الشعراء التزاماً بثوابت هذا الفن العريق وبأطره التقليدية كان أيضاً من أكثرهم خروجاً على تلك الأطر والثوابت في صورة مستجدات باعدت كثيراً أو قليلاً ما بين صورتني هذا الفن العريق .

كذلك كشف هذا الفن عن قوة عارضة أبي نواس اللغوية ، كما كان في بعض نماذجه الأخرى دالاً على ثقافة واسعة وآفاق جديدة كان الشاعر يجوس خلالها كما لم يفعل شاعر غيره من المعاصرين له ، وذلك مما سنقف عليه عند مقارنة أماديحه بأماديح غيره .